عشق

المرحوم مصطفى كامل باشا

واسماء عشيقاته

بقلم ا. ف.

من عشق فعف ثم مات مات شهيداً

« حديث شريف »

كان للمرحوم مصطفى كامل باشا
بين جنبيه قلب خفاق ككل انسان
وجنان يهتز واي جنان . فكان له
ان يعشق وان يحب ويهيم . ويتغزل
ويذوق في الحب المذاب الاليم

« المؤلف »

محرم سنة ١٣٢٦ — فبراير سنة ١٩٠٨

مطبعة المعارف باول شارع الفجالة بمصر





المرحوم مصطفى كامل باشا

ولد في اول رجب سنة ١٢٩١ — توفي في ٨ محرم سنة ١٣٢٦

عشق

المرحوم مصطفى كامل باشا

واسماء عشيقاته

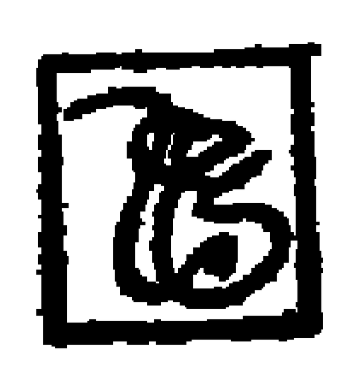
بقلم ا. ف.

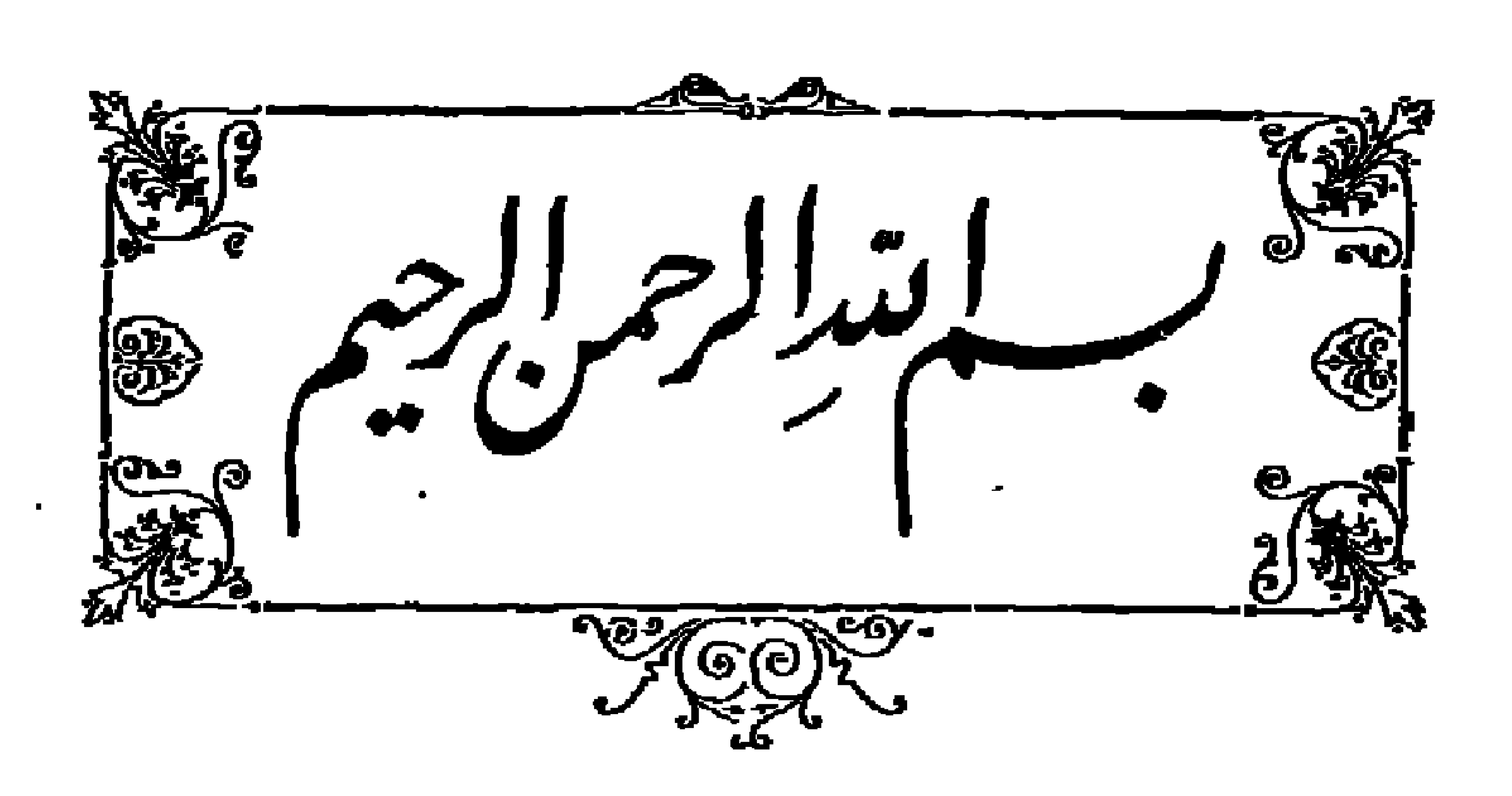
من عشق فعف ثم مات مات شهيداً
« حديث شريف »

كان للمرحوم مصطفى كامل باشا
بين جنبيه قلب خفاق ككل انسان
وجنان يهتز واي جنان . فكان له
ان يعشق وان يحب ويهيم . ويتغزل
ويذوق في الحب العذاب الاليم
« المؤلف »

محرم سنة ١٣٢٦ — فبراير سنة ١٩٠٨

مطبعة المعارف باول شارع الفجالة بمصر





ألحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه ولا يشكر على الضراء الا اياه وصلى الله على أفضل رسله وأنبيائه وأحب خلقه اليه وأقرب أحبائه وعلى آله وأصحابه وأشياعه وادعيائه

وبعد فقد انهد الجبل ومات البطل (فليحيَ الوطن) وسكت الصوت العالي ونام دليل المعالى بل مات قائدنا في الميدان وفقدناه وسط المعمعان وعدمناه وقت الرهان وحين السبق دون انتظار ولا أوان مات وفات. وكانت أعماله في الوطنية آيات بينات ولم أكن لأنتظر ان اكتب عنه بعد الممات بل كان عزمي رفع هذا الكتاب اليه في حياته

ليعلم اننا مطلعون على عشقه وعارفون عشيقاته ولكنه مات ودخل رمسه الشريف مات وقبرنا جسده الطيب المنيف ولم يبق من اثره الا أعمالٌ مجيدة وآثارٌ غالية عديدة وروح زكية ترفرف حوالينا وتطوف بين صفوفنا وتزور نوادينا ومن كان كذلك لم يمت ومن فات وترك هذه الآثار الابدية وراءه لم يفت

فالى هذه الروح الدائمة أرفع كتابي هذا

فيا أيتها الروح المطمئنة إرجعي الى ربك راضية مرضيه وبلغيه عنا السلام وأزكى التحيه

إرجعي اليه فقولي اني تركت قومك لا يهدأ لهم بال ولا ينصلح لهم من الحزن عليك حال وأحدهم عرض على كتاباً عن عشقك وصف فيه شريف غرامك وقد ذكر أسماء عشيقاتك

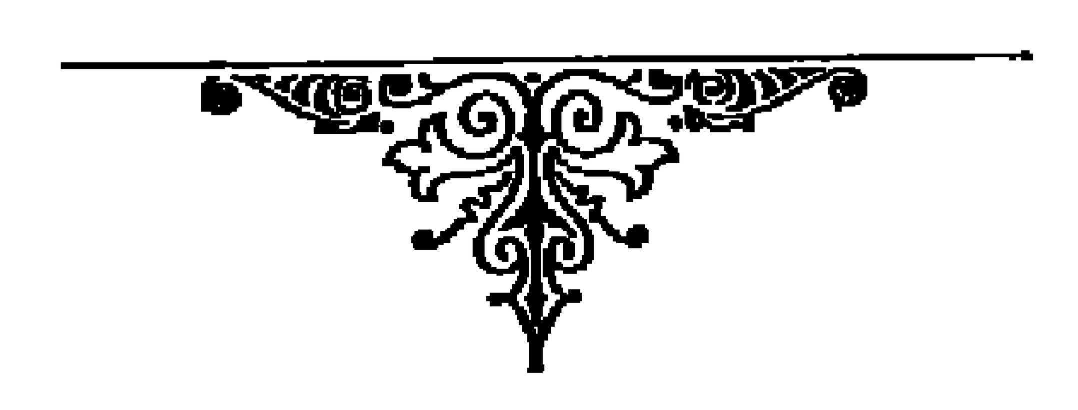
العشق فخر الرجال والحب والد الآمال لذلك لم يكن عارفو الفقيد المبرور يعدون عشقه عيباً أو رذيلة بل يسجلونه له حسنة وفضيلة. ويقولون في العشق الفخار

كان له رحمة الله عليه بين جنبيه قلب خفاق ككل انسان

وجنان يهتز وأى جنان فكان له ان يعشق وأن يحب ويهيم ويتغزل ويسهر فلا ينام الليل البهيم ولكنه كان في عشقه عالياً كأفكاره وكان في غرامه شريفاً سامياً كما هو في كل أحواله وأطواره عفيفاً تقياً نقياً صدق فيه الحديث الشريف

« من عشق فعفّ ثم مات مات شهيداً »

فعلى هذا الشهيد الرحمة والرضوان وله نطلب المسامحة والغفران أسكنهُ الله فسيح الجنان وألهمنا على فقده الصبر والسلوان



مولد مصطفى كامل باشا وكلمة عنه [1]

وُلد فقيدنا العزيز العظيم في اول رجب سنة ١٢٩١ هجرية (١٤ أغسطس سنة ١٨٧٤ في منزل المرحوم والده علي افندي محمد باشمهندس مديرية الدقهلية وهذا المنزل لا يزال الى الآن في حارة درب الميضة بقسم الخليفة في مدينة القاهرة وتوفي يوم الاثنين) (أمس) ٨ محرم سنة ١٣٢٦ (١٠ فبراير سنة ٩٠٨ فيكون عمره — ٣٤ عاماً هجرياً وستة أشهر وثمانية أيام ولكن كان كل يوم من حياته اكثر من عام في حياة غيره لانه في هذه الاعوام القليلة بلغ شهرة لم يحلم بها الشيوخ وأتى من جليل الاعمال ما جعل اسمه مقروناً باكبر الاسماء عظمة وأسماها شهرة وكأنه قد اختط لنفسه في كل أعماله خطة لم يحد عنها وكانت كل أعماله موجهة الى رفعة شأن وطنه وأمته فهي مرمى قوس عزيمته ونهاية مجهوداته وغاية ما كانت تتجه اليه اماله

عندما بلغ المرحوم السادسة من عمره جاء له المرحوم والده

---

(١) نقلاً عن جريدة اللواء الصادر يوم الثلاثاء ١١ فبراير ١٩٠٨

بالاساتذة كعادته مع اولاده فهذبوه ولقنوه مبادىء القراءة والـكتابة ثم ادخله مدرسة والدة المرحوم عباس باشا الاول فأخذ في تعلم الدروس الابتدائية وقبل ان يتمها انتقل والده الى دار البقاء فكفله شقيقه سعادة حسين واصف بك مفتش ري الفيوم فقام على أمر تربيته أحسن قيام وادخله في مدرسة القربية فجد واجتهد حتى فاق الاتراب والزملاء وقد حاز قصب السبق على كل التلامذة عند امتحانه في حفلة حافلة حضرها المرحوم توفيق باشا الخديوي السابق . ثم ألحق بالمدرسة الثانوية وكان يومئذٍ في الحادية عشرة من عمره . ومع صغر سنه فانه لم يمكث الا اربع سنوات حتى أتم كل دروسها وكان في كل سني الدراسة نابغة إخوانه

فمما تقدم نعلم ان الفقيد رضي الله عنه تعلم علومه الابتدائية وكان الذكاء يلمع في عينيه والنشاط ينير جبينه فبرع في المدرسة وكان امهر الرفقاء وأولهم فأتمها دون ان يتخلف سنة في إحد الفصول ودخل القسم الثانوي وعمره في الحادية عشر . وهو سن كما يراه القارىء يعد الانسان فيه طفلاً ولكن المترجم في

طفوليته تلك كان رجلاً في القسم الثانوي مع زملائه من الرجال وكان في تلك الطفولية يخطب على رفقائه الرجال وينفخ بنفسه الضعيف إذ ذاك على نار وطنيتهم الخامدة على أمل إضرامها .فسبحان من ألهمه الذكاء وحقق آماله العالية الشماء

كان المرحوم في تلك الطفولية يقف موقف الرجل امام أعظم رجل ويخاطب بلسان الشيخ أهيب شيخ ويجادل بلسان العالم أعلم عالم

روى الراوون الثقاة انهم رأوه رأي العين في مجلس حافل بالكبراء والعظماء منتصباً كأشد الرجال يخاطب المرحوم علي باشا مبارك ناظر المعارف المصرية اذ ذاك ويطلب منه بأثبت جنان شيئاً في مصلحته ويقول له « من يدريك أني لا اكون عظيماً أخدم أمتي ووطني بأنفع مما تخدمهما به انت الان» وكان المرحوم علي مبارك باشا يعجبه في مصطفى كامل الصغير شجاعته وقوة جنانه وينشرح صدره من اقدامه وعدم مبالاته فسبحان من حقق آماله فنفع به الوطن باكثر مما نفعه به مبارك باشا والاف مبارك (ولو ان مباركاً كان من أنفع الرجال وفخر

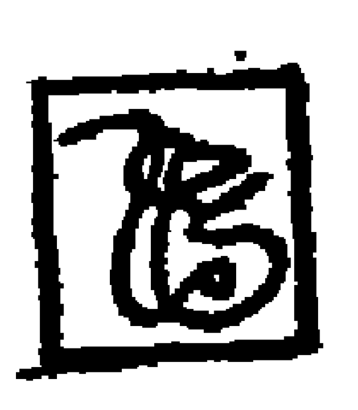
الاوطان) ولكن شتان

كان المترجم في مدرسته الثانوية يضطرم فؤاده وطنية فيجمع اخوانه الصغار ويدعوهم الى الائتلاف والتحاب ويحضهم على الاجتهاد في الدروس ويلفتهم الى حب الوطن ويستفزهم الى خدمة مصر

أَنهى المترجم دروسه الثانوية في سن الخامسة عشرة فكان أَعجوبة اخوانه وموضع إعجابهم ومحط انظارهم ومرمى فخار أهله وخلانه

في هذا العمر كان المترجم في عداد طالبي مدرسة الحقوق على أمل ان يكون في سن التاسعة عشرة قاضياً يتربع منصة القضاء ليحكم بالعدل كما امر الله بين الرجال والشيوخ فسبحانه يؤتي الحكمة من يشاء

ففي هذا العمر كنت ترى بين رجال مدرسة الحقوق الذين هم رجال الامة وعظماء شبانها فتى أمرد نحيل الجسم لامع العينين ذكاءً ملتهب الرأس نشاطاً هو مصطفى كامل



٢

حياته العملية

بدأ المرحوم مصطفى باشا كامل رضي الله عنه حياته العملية الصحيحة بابتداء دخوله مدرسة الحقوق كأنه رحمه الله على صغر سنه كان عارفاً بمقدار مركزه من القدم وشاعراً بمقدرته العظيمة ومواهبه السامية اذ رأى مدرسة الحقوق الخديوية على اهميتها اذ ذاك ووعورة دروسها وصعوبة فنونها قليلة بالنسبة لمداركه وعقله فانتظم ايضاً بمدرسة الحقوق الفرنساوية الليلية فكان غفر الله له تلميذاً في الليل والنهار وكان في مدرستين في عمر واحد

وفي هذه الهمة وهذا النشاط تعريف كافٍ للوقوف على ذكاء الفقيد وسمو عقله ومداركه التي يستحيل ان توجد في غيره

وليست الغرابة في تلمذته لمدرستين فقط بل الاغرب والاعجب في عدم اكتفائه بهما والتفرغ لهما لأنه أدخل نفسه

في الوقت عينه عضواً في كثير من الجمعيات الادبية والسياسية فكان العضو العامل بمعنى الكلمة في جمعيات الهدى والاستقامة والتعاون والاعتدال والحزب الوطني

كان يخطب في كل هذه الجمعيات على الرجال والفتيان فيخلب عقولهم بفصاحته ويأسر ألبابهم ببلاغته ويؤثر على إحساسهم بعلو معاني خطابته شاب دون السادسة عشرة من عمره موضع إعجابهم ومحط فخارهم ومرمى أنظارهم وآمالهم اذا سألتهم عنه اذ ذاك قالوا لك بملء الافواه انه **مصطفى كامل** فاذا أظهرت استغرابك وأردت الاستفهام منهم عنه أو اذا قلت ومن هو مصطفى كامل ؟ هزئوا منك وهزوا أكتافهم ولووا أعناقهم عنك وربما أجابوك انك تحت الارض أو لست من سكان مصر حيث انك تجهل مصطفى كامل . ولم تكن كل هذه مشاغله فقط أثناء وجوده في مدرستي الحقوق بل كان يكتب ايضاً في كثير من الجرائد والمجلات العربية والافرنجية مصرية واجنبية كالمؤيد والاهرام وغيرهما وكانت الجريدة التي يكتب لها مقالة تتباهى على زميلاتها وتتيه عجباً بل كانت عندما

تصلها منه المقالة ارجأتها الى اليوم التالي حتى تعلن عنها استلفاتاً للانظار وترويجاً لها فلا تكاد تظهر في يومها حتى تتخاطفها الايدي وتلتهمها انظار القراء

لم تكن كل هذه مشاغله فقط بل كان أيضاً مؤلفاً مجيداً ألّف رواية الاندلس وكتاب أعجب ما كان في الرق عند الرومان وكتاب حياة الامم وهو في نفس المدرستين تلميذ فيهما بروحين وعقلين. كل ذلك كان مضافاً الى تحريره مجلة (المدرسة) التي أنشأها والتي أخذت المكانة الرفيعة حتى أن نفس نظارة المعارف العمومية المصرية اشتركت فيها بخمسين نسخة. واشتهرت هذه المجلة ايّما اشتهار وراجت أعظم رواج وكانت الوطنية تتجسم طيّ صفحاتها لعظم بلاغة محررها وشدة فصاحته وقوة تحريره فكانت هدى المهتدين ودليل الضالين وسراج المستنيرين . فكم فتّحت من عيون للفتيان والشيوخ فعرفوا الوطنية الحقة وتشجعوا على فتح افواههم وتحريك ألسنتهم داخلها تلفظاً بكلمة وطن ولفظة وطنية ومصر ومصرية التي كانت قد اندثرت حيناً من الزمن وحذفت من قواميس القطر

كان رضي الله عنهُ إمام المصريين ودليلهم الى الوطنية يسير امامهم اليها ويجرهم وراءه نحوها وهو يترنم في الطريق ويسجع في الدرب بأعلى صوته فيطرب السامعين ويشجي المنصتين

أَهل المودة والسنن هيا لكي نعلي الوطن
ونعيد مجداً قد دفن ونفوز بالنصر المبين
فالحر لايرضى المقام بمكانة فيها يضام
والذل تاباه الكرام والعز للعليا رهين

كانت هذه اناشيده الوطنية وادوار غناءه الحماسية فكان طول عمره في حياته العملية الى ان قبض الى رحمة ربه الكريم يترنم بهذه الاغانى ويقول بلادي . بلادي

٣

وُلد مصطفى كامل بدرب الميضه كما قدمنا وكان في أحد المنازل المجاورة لمنزل والده بنت صغيرة يتيمة وُلدت قبله منذ مدة الا انها كانت رضيعاً

في احد الايام ذهبت به المرحومة والدته الى هذا المنزل

كعادة الجيران من الزيارة والتواد فجرت بينه و بين الطفلة وهما في المهد حادثة كانت حديث الاستغراب بين الوالدات والعائلات

ذلك ان امه تركته بجانبها وكانت الطفلة ساهدة بعيدة عنه فاذا به قد تدحرج حتى وصل اليها فضمها اليـه ورقد مطمئناً بجانبها وفتحت الطفلة عينيها الصغيرتين وحملقت في وجهه ثم ارتسمت على ثغرها ابتسامة له

لانقدر على تأويل هذه الحادثة ولا تكييفها ولا يمكننا إسنادها الى شيء ولكنا نقول انه ربما كان الطفل في مرتفع واخذ يضرب الارض برجليه كما هي عادة الاطفال وجبلتهم التي جبلوا عليها فاهتز جسمه من هذه الحركة فتدحرج من المرتفع حتى وصل الى موضع الطفلة . اما الابتسام فهو عادة فطرية في الاطفال تسميه الامهات « تضحيك الملائكة » الا انه بلا شك يدل على سرور وارتياح لان الاطفال يبكون عند ما يلزم البكاء ولا يضحكون في موضع البكاء

الطفل اذا شعر بالجوع بكى وان تألم بكى وان انزعج بكى. ولكنه لا يضحك الا اذا كان لا يتالم ولا هو منزعج . اذاً

لا يضحك الا كما يضحك الكبار أي سروراً وانشراحاً .

هكذا أقول مع استغرابي لحادثة هذين الطفلين وعدم قدرتي على تأويلها فالطفلة لم تكن لتضحك للطفل للسبب الذي نتوهمه او الذي توهمته والدته واهل الطفلة فسررنَ منه وعقدن النية على تزويجهما ببعضهما ولكني اقول انه تدحرج اليها والتصق بها وهي ابتسمت له والسلام

ومن ذلك الحين اخذت الالفة بين الطفلين تتعاظم وتكبر فرضعاها ممزوجة بالالبان وأَلِفاها وهما في الاحضان فكان الطفل اذا بكى اسكتوه بها واذا الطفلة بكت اسكتوها به تقول له امه اسكت لئلا تسمع « عزيزة » بكاءك فتغضب منك فيسكت لساعته ويقول اهلها اسكتي لئلا يسمع مصطفى بكاءك فيحزن فتبتسم حالاً

كانت الطفلة يتيمة وكان امر تربيتها موكولاً الى بعض اقاربها من نساء ورجال لم يهتموا بها تمام الاهتمام لفقرهم ثم لجهلهم التربية الحقة فكانت التعسة ضائعة بينهم كسقط المتاع رثة الثياب قذرة الاهاب لولا ما يجللها من جمال الخلقة

وما يشرق على جبينها من خفة الروح وشدة اللطافة والظرف الذي جبلت عليه

كان مصطفى احسن حالاً وارغد عيشاً فكان له لعب وادوات لهوٍ كعادة اولاد الاغنياء وكان يحصل على ما يشاء ويريد بلا عناء ولا بكاء وكان له ان يحمل قطعة او قطعتين من النقود الصغيرة . وكانت عزيزة محرومة من كل هذه الاشياء بلا استثناء فكان لتعلقه بها وحبه لها يذهب اليها بكل ما تصل اليه يده فيقاسمها اياه ويشاطرها نقوده ويعطيها مما في يده فلا يتركها الا وهي تضحك فرحاً وتجري مرحاً

كانت اكبر منه سناً الا انها مفتقرة اليه فكان سلوتها . والذي ينشرح صدرها بحديثه ويذهب ضجرها بمسامرته وتنبسط لرؤيته اسارير وجهها الجميل

كان مصطفى لعزيزه كالاخ الشقيق . يبكي لبكائها ويحزن لحزنها ويضحك لضحكها ويفرح لفرحها .

كان يبكر بكور العصفور فيطير من عشه على اجنحة الابتهاج والجزل الى عشها فيجدها قد سبقته في التبكير وقامت

على الباب في انتظاره فيبتسم لها وتبتسم له ثم يتعانقان .

* * *

تلك كانت طفوليته وذلك كان ابتداء عشقه وحبه ولكنه كان لا يعرف معنى الحب ولا ما هو العشق ولا يدرك سبب مداومته على مقابلة عزيزة ولا لماذا لا يلعب مع غيرها من بنات حارته ولا يدري سبب حبه للانفراد بعزيزة وحبها للانفراد به ولا عدم رغبتهما في الاختلاط بباقي الاولاد ولا يعرف معنى ارتياحه لوضع ذراع عزيزة على كتفه وتطويقه عنقها بذراعه . لم يكن يدري اسباب كل تلك الاعمال لانه لم يكن يفكر فيها ولا طرقت له على بال لصغر سنه . فهكذا تولد في قلبه الصغير وهو صغير حبّ عزيزة وامتزج عشقها بدمه وسرى في عروقه فشبّ عليه وتأصل فيه وصار منه كالروح من الجسد

٤

ولما بلغ مصطفى السادسة من عمره ارسله المرحوم والده الى مدرسة والدة عباس الاول لتلقي الدروس الاولية فكان

اليوم الأول الذي غاب فيه عن عزيزة اطول ايامه واشدها على نفسه ولطالما حدثه فؤاده وزين له عقله القاصر اذ ذاك ان يتخلف عن المدرسة ويهرب من التعليم حباً في القرب من عزيزته وتعلقاً بها ولكنه لم يكن يفعل ما ينكره عليه عاقل بل كان مدفوعاً الى المدرسة بدافع الطاعة الوالدية التي كان من صغره يقدسها ويحترمها

لم يلاحظ عليه احد كرهاً للمدرسة أو نفوراً من التعليم ولكن غاية ما أستلفت انظارهم اليه قيامه من النوم باكراً وذهابه كل صباح الى منزل عزيزة حيث يقضي معها الوقت الى ما قبل موعد المدرسة بمسافة الطريق وهكذا كان دأبه كل يوم كأنه فرض مقدس

كان والده رحمة الله عليه تقياً صالحاً فعلمه كدأبه مع اولاده الصلاة وعوده على مداومة أدائها ومصطفى عود نفسه ايضاً على فريضة أخرى هي زيارة عزيزة كل صباح فكان يؤدي بلا انقطاع فرائض الله وفريضة الفؤاد

ولما توفى والده رحمه الله حزنت عزيزة لحزنه وجزعت لجزعه وبكت بكاءً مراً عليه فكان يؤاسيها بدلاً من ان تؤاسيه

ويسليها بدلاً من ان تسليه وكان يقول لها تلطفاً انه غير حزين لانه
قد تساوى بها في اليتم وفقد الوالد وحرمانه من عطفه وحنانه ..
فما أعظم ذاك الشعور وافخر ذاك الاحساس

صار مصطفى بعد وفاة والده اكثر حباً لعزيزة واشد هياماً
بها عن ذي قبل كأن المشابهة بينهما في اليتم قد احكمت رباط الفتهما
واحتلت اساس بناء غرامهما وثبتت دعائم حبهما أيما تثبيت حتى
لقد كان يهون عليه ان لا يذوق طعاماً طول يومه على ان لا يفارق
عزيزة لحظة واحدة من حياته بل كان من السهل عليه ان
تفارق روحه الجسد ولا يبعد عنها دقيقة من نهاره حتى عُرف
أمره معها واشتهر حبه لها وذاع خبر غرامه لها وهيامه بها بين
جميع الاولاد وتلاميذ المدرسة والعائلات من جيرانهما

ذلك كان حب الاطفال او الفة الصغار فلم يكن يعاب به
او يؤاخذ عليه بل بالعكس كان كل من رآهما معانقين بعضهما
سائرين كتفاً لكتف يكاد جسدهما يظهر للرائي جسداً واحداً
لشدة التحامهما وتقاربهما يعجب لهما ويفتر ثغره ابتساما

كان الاولاد اذا رأوها منفردة دلوها على محل مصطفى



او اذا رأوه وحده يقولون له ان عزيزة تنتظرك على باب الدار دون ان تكلفهم حمل الرسالة . كانوا اذا رأوها سألوها اين مصطفى ؟ واذا رأوه سألوه عنها . بل اذا رآها واحد في موضع يلتفت حوله باحثاً عن مصطفى لتحققه من وجوده اينما تكون وحيثما تسير . و بالجملة اشتهر مصطفى انه ظل عزيزة وهى روحه

٥

ادخله شقيقه الاكبر بما له من حق الكفالة عليه بعد والده مدرسة القرية الاميرية لتلقي العلوم الابتدائية فكانت الشقة بعيدة عليه لبعد المدرسة عن منزله وعدم امكانه تمضية وقت طويل كل صباح مع عزيزة كما كان يفعل قبلاً الا انه استعاض عن طول الوقت بساعات من المساء فكان ليله مقسوماً ثلاثة اشطر شطر لعزيزة والائتناس بها وشطر لدروسه وحفظها والشطر الثالث لنومه وراحته . وفي الصباح يبكر كعادته فلا يفطر الا بعد تأدية الفريضتين ذكر الله والصلاة ثم ذكرى عزيزة ومقابلتها . كبر مصطفى في مدرسة القرية لا

سناً ولا جسماً بل مدارك وشعوراً . ارتقى عقله واتسع ذهنه وعلت همته وعظمت نفسه ولكنه لم يكبر فقد كان كما هو حوالي التاسعة من العمر نحيف الجسم خفيف الوزن

كان ابن موت كما تسمي النساء مثله يكبر في شهر ما يكبره غيره في اعوام . كان رجلاً في جلد طفل . وكان طفلاً في رأسه عقل رجل

كانت مداركه تعلو وحبه يعظم معها . شرفت احساساته وكبرت نفسه فسما غرامه وعلا هواه

٦

وكانت عزيزة اثناء هذه المدة تشب على حب مصطفى فكبرت كما كبر وروحها قد اشربت حبه . كانت صغيرة وعيناها مغمضتين فكبرت وهي تبصره فالفتهُ صغيرة وعرفتهُ طفلة وفتحت عينيها فاذا هي لا ترى الاَّ مصطفى فعرفتهُ اخاها وتحولت الاخوَّة شيئاً فشيئاً الى محبة ثم الى هوًى . وان شئت قل عشق وغرام . انه صار رويداً رويداً هياماً واي هيام

خلقت يتيمة فقيرة جاهلة بأحوال الدنيا منبوذة او غير معتنى بها تمام الاعتناء فوجدت مصطفى بين يديها يضمها الى صدره فتضمه الى صدرها وينظر اليها فتنظر اليه ويبسم لها فتبسم له ويقدم لها انواع المسرات فتتقبلها منه فلا غرو ان احبته ومالت اليه واعتمدت عليه وعلقت قلبها بهواه

كانت صغيرة لا تدري ما الهوى او الغرام ولكنها كانت تعرف انها تود مصطفى وتحبه وتهواه . كانت تشكو اليه احزانها وتبث اليه اشجانها وتخبره بكل ما يؤلمها او يلمّ بها وتبكي بين يديه فيسئلها وتقول له ان فلاناً من اهلي اهانني اليوم فيلطف حزنها ويواسيها . كانت تشكو اليه ترك اهلها لها فيشجعها على احتمال الآلام ويداوي جروح قلبها بمرهم الفاظه ويدافع عنهم امامها كي لا تسيء بهم الظن فتكدر على نفسها عيشتها بينهم فلله كم كان حكيماً في الصغر والكبر . جل شأن الله يؤتي الحكمة من يشاء

٧

كان مصطفى كالنملة همةً وحركةً وعملاً ونشاطاً من صغره لا يفتر عن العمل دقيقة ولا يتوانى لحظة فكان في المدرسة عاملاً مجداً وتلميذاً مجتهداً ونموذجاً حسناً يقدمه الاساتذة لباقي التلاميذ ترغيباً لهم وتنشيطاً ويضربون لهم باجتهاده الامثال استفزازاً لغيرتهم وتقرباً لهم كي يسيروا على نهجه ويتشبهوا به

كان أصغر التلاميذ سناً واقلهم جسما ولكن كان اكبرهم همة وأعظمهم اجتهاداً وأولهم درجة والمقدم عليهم في كل شيء . فاذا حضر مفتش أو ممتحن انتدبه الاساتذة ونادوا به ليكون الدليل الحسن على عملهم والبرهان القويم على نجاح تعليمهم فكان من الصغر فخراً للمفاخرين وشرفاً للمتشرفين وكانت عائلته الكريمة تفتخر به وعزيزة تنبسط لحديثه معها عن دروسه واجتهاده وتبتسم لكل نكتة يدخلها أثناء الحديث عن باقي التلاميذ الذين تعرفهم من الحارة الموجودين معه بالمدرسة ولو انها لم تكن تعلم من العلوم شيئاً لانها مهملة من أهلها وعشيرتها كما قدمنا

فكان ظلام الجهل سائداً على عقلها ولكن نور جبينها المتلألئ كان ينير أسارير وجهها وكانت عيناها تلمعان ذكاء شأن كل مصري فكانت تظهر له رغبتها في التعليم وحبها في الذهاب الى المدرسة لتلقي العلوم وشدة حزنها من منع اهلها ذلك عنها وعدم مبالاتهم بأمرها. ولطالما قالت اني أود ان اكون تلميذة بمدرسة نظيرك فنذهب معاً صباحاً ونعود مساءً . وكثيراً ما سالت اهلها وطلبت من القائمين بأمرها ان يرسلوها الى المدرسة لتتعلم العلوم وتتلقى الدروس فكانت لا تجاب منهم الا بالرفض او الضحك او التسويف وكثيرا ماجابوها ان وظيفة البنات هي الاعتكاف فى زوايا المنازل وان العلم هو للرجال فقط والمدارس هي للاولاد دون البنات فكانت تقول هذه الاقوال لمصطفى وهو لا يقدر ان يدحضها او يعززها ولكن كان يقول انه لا يقدر ان يصدق مثل هذا الكلام ومن رايه ان العقل واحد فى راس بنت وراس ولد على السواء ولو تعلمت البنات كما تتعلم الاولاد لكانت النتيجة واحدة بلامراء وانه يظن فقط ان اجابتهم لها بمثل هذا الجواب هو لفقرهم وعدم مقدرتهم على القيام بشؤون المدرسة

وعدم امكانهم اتباع كل لوازم التدريس ودفع مصاريف التعليم ولوازمه من الاشياء مقروناً ذلك بجهلهم وعدم مبالاة الاهل وجميع المصريين على السواء بأمر تعليم الذكور فضلاً عن الاناث. كان مصطفى يضرب لعزيزة الامثال بباقي اولاد الحارة الذين لا يذهبون الى المدرسة ويلعبون طول نهارهم في الازقة والشوارع وهم اكبر منه سناً واغنى عائلة فتقول انني اعرفهم تماماً ولكن اخبارك عن المدرسة واحاديث اجتهادك تشوقني الى التعليم وتحببني في المدارس ولكن ما الحيلة واهلي فقراء او جهلاء او كسالى او نائمون

٨

قال مصطفى لعزيزته يوماً اني المقدم فى ترتيب فرقتي في المدرسة واني سأكون بعد اشهر في الفرقة النهائية لهذه المدرسة وبعد سنة ان شاء الله اقضيها اتمم علوم مدرسة القربيـة نهائياً

قالت عزيزة . اذاً تذهب الى الديوان كل يوم مثل حنا افندي والد غبريال والمعلم تادرس وعلي افندي وتحضر في

الليل مثلهم فلا نلعب معاً ولا نروي الاحاديث (الحواديت).

قال لا اني لا يمكنني الذهاب الى الديوان ياعزيزة لاني صغير فسأذهب الى مدرسة اخرى ارقى من القربية واصعب دروساً ولكن لا اغير ابداً مواعيد اجتماعنا ولا اقطع رواية احاديثنا رغماً عما تقتضيه دروس هذه المدرسة من مداومة الاطلاع والسهر في مذاكرتها .

قالت وهل هي أبعد من القربية .

قال لا بل ربما تكون أقرب منها قليلاً واسمها المدرسة التجهيزية

قالت يا للعجب . كم مدرسة في مصر ولماذا لا يتعلم الاولاد في مدرسة واحدة فقط إن بعض اقاربي يقولون انهم دخلوا الديوان بعد مدرسة المبتديان مباشرة وأنت أخبرتني ان المبتديان مثل القربية ولم أسمع بالمدرسة التجهيزية الا منك الآن . وسمعت بعض أهلي أيضاً يقولون انهم في الديوان لايشتغلون شيئاً بل يكتب الواحد منهم جواباً أو افادة

قال مصطفى لا تعجبي فلو كنت تعلمت في مدرسة لعرفت ما أقوله لك . ان بالقطر المصري أي جميع بلادنا من آخر الصعيد

لغاية البحر المالح مدارس كثيرة مثل القربية ولكن لا يوجد غير مدرستين تجهيزيتين فالذي يحب ان يرتقي في العلوم يذهب الى احداهما ولا ينتهي من المدارس بانتهائه من دروس التجهيزية بل توجد مدارس أرقى أيضاً مثل مدرسة الحكماء (الطب) والمهندسين والقضاة وغيرها

وكان الليل قد أظلم فانصرفا دون أن يتبادلا الاحاديث (الحواديت) والالغاز (الفوازير) كما هي عادتهما . وبينما كان مصطفى سائراً الى منزله شعر بأنه كان يتكلم كاستاذه حين يلقي الدرس في المدرسة فكبرت نفسهُ وارتفع كتفاه وأحس ان جسمه طال قليلاً فأخذت الشجاعة من ذلك الحين تدب في عروقه وتجري في شرايينه وابتدأت الحماسة والحمية تتولدان في جسمه وهز النشاط همته فتحركت من ذلك الوقت حركة شديدة دامت الى نهاية حياته وكانت تزداد شدة من حين الى حين

٩

كانت المدارس الاميرية في الزمن السابق اي منذ سبع

عشرة سنة تقريباً تحتفل احتفالاً عاماً في نهاية سنتها المدرسية وتدعو اليه اولياء التلاميذ والاغنياء والاعيان من الاهالي ويحضر ناظر المعارف العمومية بذاته بعض هذه الاحتفالات ويختبر بنفسه بعض التلاميذ وربما تكرم الخديو بالحضور أيضاً

ففي سنة ١٨٨٥ كان احتفال مدرسة القربية الاميرية فاخراً وعظيماً جداً لان المرحوم توفيق باشا الخديوي السابق تكرم بتشريف المدرسة لحضور الاحتفال بذاته الكريمة .

ولما شرف المدرسة وكان في معيته الوزراء والعظماء وناظر المعارف وكبراؤها تقدمت التلاميذ الى الاختبار فكان اعجاب الخديو بهم عظيماً ولقد استولى على الحضور الاندهاش والاعجاب لما شاهدوه في أحد التلاميذ الصغار من النباهة وحسن الالفاظ واتقان الالقاء وشجاعة القلب وقوة الجنان وثبات الجأش.

ذلك الصغير كان مصطفى كامل الذي استلفت أنظار توفيق باشا وتنازل الى امتحانه بنفسه والتصفيق له براحتيه الشريفتين سروراً واعجاباً

ذلك كان لصغره في السن وكبره في الدرجة والمقام المدرسيّ فكان محط الانظار ومرمى الابصار . طفل في الحادية عشرة من عمره يتم الدروس الابتدائية بنشاط وهمة واتقان حتى يكون الاول بين أقرانه الاكبر منه سناً . ويقف أمام الخديو المهاب والعظماء في مثل ذلك الموقف المهيب على منبر الامتحان ويفوز بقصب السبق فيه ويجري في شوطه بأثبت قدم واقوى جنان . ان هذا لمن فلتات الطبيعة فسبحان الوهاب المنان . انتهى الاحتفال وانصرف التلاميذ وخرج مصطفى من المدرسة فكانت الابصار ترمقه والانظار ترشقه والالسنة تلهج بالاعجاب بهمته اكثر من مدحه والثناء عليه

كان الفرح به عظيماً عند عائلته الكريمة وابتهجت عزيزة أيما ابتهاج وباهت به باقي الاولاد الذين ابتدأ الحسد يدب الى قلوبهم والغيرة منه تدخل في أفئدتهم ولكنه كان وضيعاً كأنه لم يرتق رقياً نادراً من مثله

١٠

كان عجيباً نبوغ النوابغ حول تلميذ في الحادية عشرة

من عمره الى مدرسة ثانوية ومثله في هذا السن يبتدئ في التمرين على معرفة أبواب دور التعليم . ولكن مصطفى كامل نابغة أقرانه وابن الطبيعة وصنعها وأعجوبة الدهر كان في الحادية عشرة من العمر طالباً بمدرسة الحكومة الثانوية وأول الفائزين في امتحان المدارس الابتدائية النهائي وفخر الاساتذة والتمثال الحي على ذكاء المصريين ونباهتهم

كان دخوله الى المدرسة الثانوية ابتداء تاريخ جديد في حياته شعر معه انه صار رجلاً وانه في موقف حرج بين اقرانه .

كان سامي المدارك فأدرك انه الآن رجل في مدرسة عالية تلقي عليه الدروس العالية كباقي أقرانه الكبار فعلم انه صار في حياة عملية جديدة تختلف كل الاختلاف عن العشر سنوات من عمره التي قضاها بين رضاع وفطام وترعرع ولعب ومرح ورتوع ومسامرة لعزيزة ورواية احاديث منها وتفسير الغاز وتعليم ابتدائي كبير . تلك حالة صبيانية ومعيشة طفولية تناديه الوداع وتقرئه السلام . وهذه حياة عملية شاقة تمد اليه يدها بالتحية والاعظام . مد اليها يداً قوية وحياها بالترحيب والتأهيل

وعاهدها على الولاء والوفاء . فثابر وجد . واشتغل واجتهد . حتى حفظ في فرقته العالية . ترتيبه في مدرسته الابتدائية . والتصق به الاسم السابق واشتهر بالعلم والعمل والنشاط وكثرة المذاكرة فكان الاول في كل سني تعليمه الثانوي والمقدم على جميع اقرانه واخوانه . . ينتهي العام فاذا به الاول . ويمتحن في الاحتفالات فيكون الاول . ويختبر في الالقاء والمحاورات الادبية فيكون الاول حتى صار زهرة في حدائق المعارف وشمساً في سماء المدارس . يعرفه الكل . أو يسمع باسمه الكل وكانت دروسه لا تشغله عن الافتكار بعزيزة وتذكر ماضي طفوليته معها وكان يحادثها كثيراً عن ذلك الزمن الذهبي الذي قضياه في اللعب والمزاح . قال لها مرة اني أتذكر الماضي ياعزيزة فأتمنى عود الطفولية ثانية لاكون معك دائماً

قالت لك ياأخي ان تذكر الطفولية ولكن لا اسمح لك ان تتمنى عودها . نعم اني كنت سعيدة فيها بقربك وكان لنا دواعى مسرات كثيرة تركناها الآن لاشتغالك انت بالدروس واقبالي انا على تعليم واجباتي الداخلية ولكن يكفي ان نتقابل

هكذا كل مساء ونرضى بهذه الحال . . وسكتت هنا خجلاً

قال مصطفى وقد فهم سبب سكوتها وداعي خجلها وقد تناولته الافكار اني لا اريد التقهقر يا حبيبتي والرجوع الى طفولية الجهل ولكنهُ فكر يلازمني فآنس من نفس انساً به وارتياحاً له وما سبب ذلك الا تنعم الذهن بمراجعة الماضي الجميل وتشخيص الطفولية المحبوبة . انا ياعزيزة لا اجسر ان اشافهك بما في قلبي نحوك . وما في فؤادي من حبك . فأنت اكبر مني سناً تقدرين على فهم معنى خفقان قلبي حينما اراك

ثم سكت مصطفى ولم تجبه عزيزة . ووقف الاثنان برهة صامتين ينظر كل منهما الى الآخر والدموع تترقرق في اعينهما . وملائكة المحبة ترفرف فوق رأسيهما . ثم انصرف كل منهما الى منزله دون تسليم ولا تحية

١١

ماذا حصل بين عزيزة وحبيبها حتى افترقا دون تحية أو سلام ؟ . جدّ عليهما انهما قد كبرا وعرفا أحوال الدنيا والعيش

والحياة فلما شافها بعضهما بما في القلبين من حب وغرام حصل لهما ما يحصل للمحبين وما ينتاب العاشقين من الدهشة والحياء وهي سنة أهل الغرام

عرف مصطفى الحب وعرف نفسه عاشقاً فلما شافه حبيبته بحبه ورأى سكوتها وخجلها ثم انصرافها صامتة اعترته المخاوف وتولاه الاضطراب

سأل نفسه مراراً وكرر على نفسه كلماته الاخيرة لها « أنتِ اكبر مني سناً تقدرين على فهم معنى خفقان قلبي حينما اراكِ » فعرف أنها فهمت مراده وانه يعني بكلامه انه يحبها لان خفقان القلب عند رؤية الحبيب من دواعي الحب ولكنه لم يعرف لماذا سكتت ولا ماذا تقول الآن

عشق وكان ما كان فلا يقدر الآن على ردّ جماح قلبه وكيف يقدر وقد فطر على حبها وتغذى به مع الرضاع وشبّ عليه كان عشقه لعزيزة ثابت الاركان في قلبه موطد الدعائم في فؤاده سرى مع الدم في شرايينه وجرى مع الحياة في جسمه فماذا يصيبه لو جفته الان أو تباعدت عنه بعدان باح لها بغرامه ؟

عاد الى منزله بعد انفصاله عنها ملتهب الفؤاد بحبها ولكنهُ كان كثير الشك فى حبها له لانها لم تجبه على سؤاله ولم يظهر على محياها دليل على الغرام .

تشتتت افكاره واظلمت ذاكرته وزاغ بصره واختلط عليه امره فلم يعد يستطيع مطالعة الدروس كعادته ولم يجد له قابلية على تناول العشاء فقصد فراشه وحاول أن ينام

قضى الليل ساهراً وقد هجره النعاس . فصار يراجع الماضي ويكرر كلام عزيزة معه ويفكر بأحاديثها ويتذكر ألغازها ويتصور وضع يدها على كتفه وتطويقه عنقها بذراعه ويشخص محاسنها امام عينيه ويمثل جمالها لناظريه فيتأوه شجناً ويزفر لوعة وهكذا حتى هطل الدمع من مقلتيه

١٢

تشابه الشمس والحب

اذا وقع شعاع الشمس على بلّورة انعكس عنها منحلاً الى ألوان الطيف الشمسي السبعة كما ترى فى قوس قزح . كذا الحب

اذا وقع شعاعه على قلب انعكس عنه منحلاً الى عدة مزايا بشريّة كالشمم وطلاب العلى والاقدام الى غير ذلك مما يتجسم من صفات المتولهين (*) هذا رأى كاتب اديب ظنّ أنه مطابق للواقع فحكم به واطلقه حكماً ابدياً واثراً خالداً واعتقاده فيه طبعاً انه لا يقبل النقض ولا الابرام وانه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تحرير من اديب اريب

ولكني اقول انه قد يخطيء وان خطاءه اكثر من اصابته . يصيب مع النبيل فيصدق فيه تماماً كما صدق في بطل روايتنا هذه مصطفى كامل ويخطئ مع غيره اذ يحبب له ترك اعماله كي يتفرغ للتلذذ بمجالسة حبيبه فتفوته الفوائد وتذهب من يده فرص الجد والعمل فتنقلب حاله الى اسوأ حال وتضيق الدنيا في عينيه وييأس من الحياة فينتحر وهكذا يكون الحب سبب وقوعه في الدناءة والجبن والقنوط من قوة الذات

ولكم سمعنا وشاهدنا اشخاصاً انتحروا وقضوا على انفسهم بالموت من يدهم واذا حققنا امرهم علمنا انهم محبون قد وقع شعاع

(*) نقولا افندي حداد

الحب على قلوبهم فأضرم فيها ناراً محرقة غلى منها دمهم فأطاش احلامهم واذاب عقولهم حتى لم يبق لها من اثر ففعلوا افعال المجانين وهم لا يمتازون عنهم بشيء

اما مصطفى فكان من القدم نبيل الطبع عالي الهمة فانعكس شعاع الحب عن قلبه منحلاً الى زيادة في الشمم وقوة في ارادة طلب العلى وشدة في الشجاعة والاقدام

كان غريباً في طباعه عجيباً في اخلاقه نادراً في همته فازداد بالحب همة وعظم به قوة فكان الحب امامه كنور الرقى فأخذ يحاول الصعود اليه مستنيراً به

جعل الحب من ذلك التاريخ رائده ودليله ومرشده وامامه فاذا انقطع عن المطالعة يفتكر بحب عزيزة فيتقوى واذا قصر عن مداومة الجد تذكر عزيزة فعاد الى الجد . جعل صورتها امام عينيه وتمثلها في درسه ومذاكرته وامتحانه فكان قلبه يقوى وتأكله الحمية فلا يخيب له قصد ويفوز باكثر مما يؤمل

١٣

لم يحاول مرة واحدة نزع الحب من فؤاده بل كان يدفع

نفسه الى كل ما يثبت اصوله في اعماق قلبه ويوطد دعائم قوامه رضع الحب وبه تربى . وعليه شب . وبيده اندفع الى تيار العمل بجد واجتهاد حتى انه لو لم يكن عاشقا لما ارتفع كل هذا الارتفاع على اقرانه فى المدرسة ولو انه كان من طبعه شعلة ذكاء

فى صباح اليوم الذي كاشف عزيزة بحبه وقضى ليله قلقاً بكر كعادته ونزل من المنزل ولم يكد يفتح بابه حتى فاجأه نور محيا عزيزته واقفة على باب منزلها فى انتظاره فاهتز قلبه فى صدره اهتزاز العصفور بلله القطر وجلل وجهه اصفرار خفيف وسرت الرعدة فى عروقه

صار مصطفى رجلاً وعرف الدنيـا فعرف الحب واحب عزيزة بكل معنى الحب من سويداء قلبـه وصميم فؤاده فلا غرو ان اعتراه ما يعتري العاشقين من الاضطراب والاصفرار ساعة الملتقى

وكانت عزيزة اكبر منهُ سناً الا انها اقل مدارك ولكنها في المدة الاخيرة بفضل مصطفى ومخالطته لها احتكت افكارها

بأفكاره فانمحى عن ذهنها بعض الصداء الذي كان يجلاه واستنارت من محاوراته الادبية معها فانزاح عن عقلها ستار ظلام الجهل قليلاً واصبحت تحس احساس المتعلمات وتبدي افكاراً عالية تنم عن ذكاء دفين ونباهة مستترة فكانت حينما ترى مصطفى تشعر بما يشعر به من اختلاج القلب واضطراب المفاصل فتعرف انه يعشقها وانها تهواه

كان الحب الحقيقي بمعناه التام متواصل الاطراف بين فؤاديهما فكان كل منهما يحس بما يحس به الآخر ويشعر بشعوره فكأنهما قلب واحد في جسمين فلما قرب منها ألفاها تتبسم له فتشجع قليلاً وحياها تحية الصباح . قالت نعمت صباحاً ايها المصطفى

قال عساكِ بخير يا عزيزتي ؟

قالت انا بخير ما دمت أنت كذلك

— ألا تزالين باخلة عليَّ بالجواب على سؤال أمس ؟

— لست باخلة ولكن ألا ترى في وجهي جوابه الصريح ؟ اني لأعهدك يا مصطفى نبيهاً . فهل لا تدلك نباهتك على

ميلي لك وحبي اياك ؟ أتكلم الآن معك بشجاعة أكسبنيها جنانك وعلمنيها عزمك واقدامك . فقال مصطفى وقد ترنح طرباً وابتهج فرحاً تفديك روحي ونفسي يا عزيزة . أدام الله لنا هذا الحب المتبادل . . والآن وقد ازف وقت انصرافي للمدرسة فسأخبرك في المساء بما أعددته لك ولنفسي لاجل المستقبل فأستودعك الله .

ومضى العاشق الولهان والفرح يدفعه الى الامام تارة ويوقفهُ في الطريق تارة اخرى وطوراً يلفتهُ يميناً وطوراً الى الشمال

١٤

آه . ما اجملك يا عزيزة . قد نبت حبك في اعماق فؤادي فلو تحول قلبي من الشمال الى اليمين لما حلت عن حبك . آه ما ألطفك يا عزيزتي. اني اضرع الى الله ان يحقق آمالي بحوكِ ونواياي لكِ

وقضى يومهُ في فرح وانشراح يقيمانه ويقعدانه . وأظهر في نفس اليوم ذكاءً غريباً ونشاطاً عجيباً وجدًّا متواصلاً

وعزماً شديداً . كان حب عزيزة لمصطفى كمستودع الكهرباء يستمد منهُ القوة والنشاط والعزم والاجتهاد . كان حبهُ لها كالشمس يبعث الى عقله نوراً فيضيء ذكاء والى رأسه حرارة فيشتعل نشاطاً . كان حبهُ لها كالقمر يرسل اشعتهُ النورانية الى قلبه فينيره . كان حبهُ لها يحرك لسانه فينطق بالحكمة والصواب . بل كان حبهُ لها سبب سعادته وفوزه وأصل كل ثباته ومواصلته الجد والاجتهاد . قضى يومه فى المدرسة يفكر بعزيزة ويبني على حبها قصوراً فى الهواء ويحدث نفسهُ ويمنيها . ويتخيل انه نال بحبها الدنيا وما فيها

وخرج من المدرسة مساءً ولم يقصد المنزل كعادته بل ذهب توًّا الى حانوت يوسف افندي ابن عم عزيزة فسلم عليه وحياه فقابله هذا بالتجلة والاحترام لما كان له من المقام العالي فى العيون والاجلال فى القلوب ولما كان يعرفهُ عنهُ من الصفات الادبية الحميدة والاخاء والوفاء و بعد اداء واجب التحية قال مصطفى اني بارحت المدرسة حالاً ورأيت ان اغير عادتي في الذهاب تواً الى المنزل وان اريض النفس قليلاً فلم اجد

افضل من الجلوس عندك والائتناس بمحادثتك لما اعلمه من عزيزة عنك وكثرة مدحها في همتك وسمو مداركك

— لقد اخجلتني يا مصطفى ولئن كنت على شيء فما انا الا امثولة لك او نقطة من بحرك . نعم بيتنا من القدم اصل العلم والتقوى ولكن العائلة فنيت ومات رجالها ولم يبقَ منها الا النساء والاطفال و بعض الرجال الذين لا يكاد يعد الالف منهم بواحد وانا منهم

— ما هذا الكلام يا اخي . انت من خيار الناس. وانا لا اسمح لك ان تتوهم في نفسك الصغار والضعف . انت كما سمعت عنك وشاهدته منك في بعض الاحيان عظيم وعالم جليل فلا يليق ان تنسَ نفسك الى هذه الدرجة بل اعرف نفسك يعرفك الناس وعظم نفسك يعظمك الناس وشرفها يشرفك الناس . وما النفس الا حيث يضعها الانسان

وما النفس الا حيث ينزلها الفتى وأنى لها فوق السماكين واضع

قلت ان اهلك من القدم اهل علم وتقوى وانا عرفت ذلك عنهم وسمعت شيئاً من اخبارهم وسيرتهم ولقد اخبرني المعلم

ابراهيم ابن خالتك ان جدك كان عالماً كبيراً وفيلسوفاً عظيماً . وان جده كان كذلك . وان ما ناله رجالكم من العزّ والسؤدد كان عظيماً تفتخر به عائلتكم على مرّ الايام

— نعم يا مصطفى نعم . ولقد كانت دارنا بهجة الدور ومحط الرجال والعظماء فكانت على الدوام غاصة بالكبراء والادباء والطلاب والمتعلمين الذين يقصدونها للاغتراف من بحر اهلها والارتشاف من منهلهم العذب ولكن أبى الدهر الا ان يندثر كل ذلك واصبح البيت يغلق بابه قبل المساء ويندر ان يفتح نهاراً لغير واحد من اهله

— هذه يا يوسف افندي سنة العمران فيوم لك ويوم عليك وقد قال الله عزّ وجل في كتابه الشريف « وتلك الايام نداولها بين الناس » فلا يحزنك ما قد حصل وليكن لك فيك وفي صالح ابن اخيك خير تعزية . اني أرى فيك وفي بعض افراد اهلك شيئاً من الصفات العالية والهمة ولا جرم ان العرق دساس وانكم لا ريب نسل اولئك العلماء العظماء وانه سيأتي يوم تقبضون فيهِ على زمام العظمة كما كنتم

— أشكرك يا مصطفى افنـدي من كل قلبي على هـذه المجاملة الحسـنة وأهنئك ايضاً بما تظهره من الجد والنشاط اللذين اكسباك اعطر الذكر بين اقرانك واللذين كانا سبباً في تنشيط الآباء واستفزاز عزائمهم لارسال اولادهم الى المدارس. أسأل الله ان يزيدك رفعة

فشكره مصطفى وحياه وانصرف الى منزله فاذا بعزيزة تنتظره على الباب فتلقتـهُ بالترحيب وسألتـهُ بلهفة عن سبب غيابه على غير عادة .

١٥

أجاب مصطفى اني كنت مع يوسف ابن عمك

— عجباً ولماذا ؟

— اردت ان اصرف وقتاً بعيداً عن المنزل رياضة لذهني. فذهبت الى حانوته وقطعت الوقت معهُ في حديث عن بعض الشؤون ثم انصرفت الى هنا .

— وهل نسيت اني بانتظارك كعادتي ؟ او رأيت انك قد كبرت فاردت التشبه بالرجال في الجلوس على ابواب

الحوانيت والقهاوي ! ان المعلم صالح ويوسف واغلب اقاربي واهلي وجيراننا جميعاً يقطعون اوقاتهم في لعب الطاولة (النرد) والضومنو على القهوة ولا يعودون الا ليلا فهل اصبحت يا مصطفى مثلهم ؟ اني أعيذك يا حبيبي ان تكون غرًّا وتتنازل الى هـذا الحد . انك قد برهنت كل تلك السنين لعارفيك انك على غير خطتهم وانك تشرّع لهم شرعاً جديداً فهل خانك عزمك وتغلبت عليك طباعهم وعاداتهم ففعلت ما يفعلون ؟

— ما هذا الحديث الطويل يا عزيزة ؟ وما هذه الحدة المتناهية في الكلام ؟ هل يفهم من عبارتي كل هذا المعنى ؟ هل مجرد ذهابي مرة واحدة الى حانوت للاستفهام عن بعض الشؤون يجر كل هذه الافكار الى ذهنك ؟ اني انا أعيذك ان تظني بحبيبك السوء وان تقعي في الاثم . أن بعض الظن إثم . . ومعاذ الله أن أنسى انتظارك لي كعادتك او يغيب عن ناظري شخصك أو اترك محبتك . وهنا اغرورقت عيناه بدموع التأثر فدلت على شدة المحبة والاخلاص . كانت دموعهُ تترقرق متلألئةً كالمرآة فرأت عزيزة فيها

صورة قلبه ورأت صورتها مرسومة على جدران ذاك القلب الطاهر فابتسمت له وانتعش فؤادها فطيبت خاطره ببعض الفاظ عذبة كانت بلسماً تداوي به انكسار خاطره وانبسطت لها اسارير وجهه وافتر ثغره ابتساماً .. ولما كان الليل قد أرخى سدوله هزّ يدها بالسلام ومضى الى منزله وكلهُ افكار وهواجس وآمال ومطامع .

وكان أهله قد قلق بالهم عليه فارسلوا الخدم الى منزل عزيزة للسؤال عنهُ فلما وصل لم يسألوه عن سبب غيابه لانهم كانوا يهابونه . ولانهم كانوا لا يظنون فيه الظنون ولا تاخذهم فيه الشكوك ولا يعلمون عنهُ الا حبهُ الشريف الطاهر لعزيزة ذلك الحب الفطري الذي شب عليه ولا يمكنهم ارجاعهُ عنهُ ولا سألوه مرة واحدة ان يخفف منهُ او يسلوه

قضى ليلتهُ تلك على خلاف عادته . نعم ذاكر دروسهُ وافتكر بحبيبته ولكنهُ عمل عملاً جديداً بات لاجله مطمئناً هادئ البال فنام نوماً عميقاً واستيقظ في الصباح مسروراً

قصد قبل المدرسة عزيزة وكانت ككل صباح تنتظره

فحياها وحيتهُ ثم قال : —

— بنيت يا عزيزة الليـلة الماضية مستقبلاً باهراً لنفسي جعلتك اساسهُ فهل يسرك الاطلاع عليه ؟

— كيف لا ؟

— اسمحي لي يا عزيزة ان اتكلم بحرية ضميري . أحببتك من صغري وثبت هذا الحب في كبري وكثيراً ما افتكرت وناقشت نفسي وباحثت ضميري واخيراً حكم عقلي ونطق بالحكم فؤادي وتلاه لساني وكتبت نتيجتـهُ أنامل آمالي وها هي اتركها عندك الآن وسأتلوها عليك في المساء والآن أقرئك السلام . ومضى الى مدرسته

فاخذت عزيزة الكتاب وأخفتهُ بين ثيابها . وقضت يومها تفكر في فحواه وتحوم بفكرها حول ما احتواه فلم تهتـد الى شيء ولم تستطع معرفة شيء . فانتظرت اياب مصطفاها على احر من الجمر .. ولما انصرف مصطفى من المدرسة قصد منزل عزيزة فاذا هي في النافذة تنتظر قدومهُ فاشار اليها بالتحية فحيتهُ بحركة من يدها دلت على شدة سرورها برؤيته

وابتهاجها بقدومه فصعد وفي لحظة صار معها فتصافحا بالايدى وجلس بجانبها امام النافذة وكان الفصل صيفاً وهي لابسة ثوباً من الكتان الرقيق يظهر من خلاله بياض ذراعيها وصدرها الذى يعلوه عنق جميل اللون كأنه اسطوانة من فضة مشوبة بالذهب تأخذ بالابصار . فوقها وجه آية فى التكوين تحيطهُ هالة حالكة السواد من شعر ناعم الملمس مسترسل على ظهرها كأنه الليل في شدة الظلام . وكان لها عينان سوداوان فوقهما حاجبان كرميين وبالاجمال كان الجمال العربي والرقة المصرية متمثلين في عزيزة تمام التمثيل فكانت أجمل جيرانها وأرقّ بنات جنسها بقطع النظر عن فقرها الطارىء وذلها الحادث فهي بنت الاكابر وسلالة الاماجد والعظماء كما قال ابن عمها يوسف وتحققهُ مصطفى من كثير من الرواة ولان تاريخ بيت عزيزة كان معلوماً لدى الجميع اذ ذاك واخبار اهلها واعمالهم لا ينكرها انسان

وكان الحر شديداً ومن تأثيره صعد دم عزيزة الى وجهها فتمثل فيه اللون المصرى الجميل الجذّاب أحسن تمثيل فتحرك هوى

مصطفى وزاد قلبهُ هياماً . فالتفت اليها وقبض على ذراعها وقال :

ـ لك الله ما أجملك يا عزيزة وما ألطفك . أيّ قلب لا يسجد امام هذا الهيكل العظيم . بل اي فؤاد لا يدفع بنفسه الى نار غرامك ان نار غرامك جنة انا منعم فيها وقرير .

ـ أنت تخجلني بهذا الاطراء في المدح يا مصطفى

ـ لا اقول الاّ حقاً . ولا احكي الاّ ما هو معروف ومشهور . ان قلبي يا عزيزة في نار محرقة من غرامك ولكنني متنعم باحراقها له وأحس بحرارة لهيبها في فؤادي فأخنع لها وأسكن كأنها لذة او نعيم . أحببتك يا عزيزة من كل قلبي فلا أريد ان ابتعد عنكِ

ـ إن اجتماعنا الدائم لا يتيسر يا مصطفى ، قالت هذا وأطرقت متلعثمة

ـ كيف ذلك ؟ ماذا تقولين يا عزيزة

ـ آه يا مصطفى لا ادري ماذا اقول

ـ تكلمي ولا تخشي احداً ولا تجرحي فؤادي بهذا السكوت وهذا الكتمان

ـ اذاً فاسمع . انني لست لك بل انا ملك لسواك بمقتضى ارادة اهلي فهم سلموني لمن لا احبه ولم تعد لهم مقدرة على ارجاعي وخلاصي منهُ

ـ اعرف ذلك ولكن ثقي انه ليس في استطاعة مخلوق ان ينتشلك من يدي ولكن اخبريني من هو ذلك الذي تجاسر على تنكيد عيشي . هل هو من اهلك واقاربك حتى يكون احق بك مني ؟ انا عالم بامره ولكني متكل على عزمي ومساعدتك ومؤازرة يوسف وصالح وبعض ذوي قرباك الذين اعهد فيهم الشجاعة والعزم فاخلصك منهُ وتكونين لي وحدي ولسوف ترين . وهذا هو الامر الذي جئت اليك من اجله ولو كنت تعرفين القراءة لقرأتِ كتابي الذي معك .

ـ كان ذلك وانت صغير ولكنك قد عرفته فما هو من اهلي بل هو اجنبي واخشى ان اقول انه اجنبي الجنسية ايضاً ولا اعلم لماذا استسلموا له الى هذا الحد ورضوا به زوجاً لي وانت تدري ان البنت في قبضة اهلها كالمتاع يتصرفون فيها بمشيئتهم وليس لها ان تبدي رغبة في زوج او ميلاً الى

شابٌ قالت ذلك وسقط الدمع من عينيهـا وغصت بريقها فانقطع كلامها وسكتت

ولا تسل عن حزن مصطفى وشدة ألم الضربة التي احس بها من جراء بكائهـا فلو نزلت الصواعق وامطرت السماء ناراً لما كان لهـا من التأثير على فؤاده كتأثير تلك الدموع عليه . ووقعت دمعة على يده فاحس بها كأنها جذوة نار أحرقت يده فانذعر وصاح بعزيزة قائلاً : —

اني لا احب البكاء واني امنعك ان تبكي او تذرفي دمعة واحدة . ان البكاء لا يكون الا عند اليأس والضعف وما دمت بجانبك فلا يداخلك اليأس واتكلي بعد الله على عزمي وهمتي ونامي هذه الليلة براحة وطمأنينة وفي الصباح ترين ... وطيب خاطرها وانطلق الى منزله وقـد شعر بأنه أصبح ذا مشاكل وأفكار ...

١٧

كان مصطفى يعرف ان اهل عزيزة وعدوا ذلك الاجنبي بالاقتران بها مبدئياً غير انه لحبهِ لها لا يمكنهُ التسليم بارادتهم

لا سيما وانه يراها في نكد دائم من جراء ذلك . فاخذ يتودد الى يوسف ابن عمها والمعلم ابراهيم وصالح ابن خالها حتى اسس له مكانة بينهم ووطد الصحبة والالفة معهم فصار عندهم الصديق المحبوب وعرفوه الصادق العزم والقول . العالي الهمة والفعل . وكثيراً ما يكلفونه بقضاء بعض مهامهم والسعي في بعض شؤونهم . ولقد درّبهم هو على المحاورات الادبية وشجعهم على خوض بحار المجالس العلمية . فاحبوه من كل قلوبهم وأخلصوا له الود . وكان في هذه الاثناء على وشك الانتهاء من مدة المدرسة الثانوية . وكان لا يزال حافظاً اسمهُ الشريف في الجد والعمل وترتيبهُ في ادوار التعليم . اي انه كان لا يزال المقدَّم بين اقرانه . وكان قد تدرب واختبر الاعمال وتعوّد اقتحام الاهوال فكان لاقل سبب يقابل ناظر المعارف نفسهُ ويدخل عليه بدون استئذان ويكلمهُ كما يكلم احد اقرانه ويخاطبهُ باللسان الذي يخاطب به بعض اخوانه . وكانت شجاعتهُ وثباته وعزمه واقدامه وصفات الرجولية التي ظهرت عليه والشهامة التي التصقت به وجرأة الجنان وطلاقة الوجه

وذلاقة اللسان كل هذه الصفات العالية والمواهب السامية قد
حييت فيه المرحوم علي مبارك باشا ناظر المعارف العمومية في
ذلك الحين فكان لا يغضب من مقابلته ولا يتأفف من الشدة
التي كان يبديها في مخاطبته بل كان يسرّ وينشرح صدره
وكان في بعض الاحيان يتعمد اغضابه ليجرّأه على الكلام
ويشجعه في المخاطبة

كان المرحوم علي مبارك باشا يحب مصطفى ويترنم في
المجالس بوصف شجاعته واقدامه

قال له مصطفى مرة وهو ناظر المعارف العمومية في
جلاله وجبروته امام جمع من العظماء والكبراء بعد محاورة حماسية
« من يدريك انني لا اكون يوماً ما عظيماً وأخدم امتي بانفع
مما تخدمها به انت الآن » فلم يأبهْ علي باشا مبارك لهذا الكلام
او يغضب بل ابتسم له وضحك متهللاً وقال له « ارى انك
ستكون عظيماً يا مصطفى فلا تنسَ حينئذٍ الفقراء »

وكان لهذه المقابلات صوت يرنّ في جوانب مصر فتردد
صداه جميع المجالس والمحافل . وتحدثت به النساء في الخدور

حتى اصبح اكثر الناس يعرف مصطفى كامل او يسمع بذكره ولا يراه

وأتم الدراسة الثانوية وتقدم للامتحان فكان رأس الفائزين واول الناجحين وأعجب ببراعته الناس . وكان عمره اذ ذاك حوالي الخامسة عشرة فسبحان الوهاب

١٨

من ذلك الحين وجد مصطفى في نفسه عزماً ومقدرة على انقاذ عزيزة من يد ذلك الاجنبي المغتصب لها بدون حق ولا أهلية

افتكر كثيراً وتذكر انه سمع في صغره مراراً ان عزيزة ستكون له فكيف تذهب منه الآن . وكيف يعلم اهلها ذلك ويسمحون بها لغيره . ان فيكتور أجنبي الجنسية عنها فكيف يطمع ان تكون عزيزة وهي مصرية عريقة في الوطنية عروساً له ؟ هل اوصل الجبن اهلها الى حد انهم لا يفتكرون في اجنبيته . ألا بعداً لهم انهم جاهلون . سوف يري فيكتور مدافعتي عن

عزيزة وانقاذي لها من يده . وسوف يعلم يوسف وصالح وسائر اهلها انني متمسك بأنها لي واني لها . ألا فليهدأ بالك يا عزيزة فانت لمصطفى الى ابد الآبدين

كان مصطفى صغير السن حينما طلب فيكتور يد عزيزة ونالها من أهلها ولكنه كبر الان وأحبها وشعر بمعنى الحب وقوة العشق فكيف يتعذب ببعدها ويدع فيكتور يتمتع بقربها

صمم النية ووطد العزم على الجهاد في هذا السبيل وهو من الذين اذا قالوا فعلوا . فصار من السهل ان تتحوّل الاهرام عن موضعها ولا يتحول مصطفى كامل عن عزمه

شرع في العمل فذهب اولاً الى يوسف ابن عم عزيزة وفاجأه بعد التحية بقوله

— كيف سمحتم لفكتور بيد عزيزة

— عجباً ولماذا هذا السؤال

— أريد معرفة السبب اولاً ثم اخبرك لماذا

— حسناً . اعلم يا اخي انه لما توفي والدا عزيزة وكان يلزمها طبعاً عناية ومراعاة ومصاريف وغير ذلك من لوازم التربيـة

وكنا كما تعلم فقراء اضطرب امرها وساءت حالها كثيرًا . هذا بقطع النظر عن انصلاح امرها في الوقت الحاضر بعنايتك ورعايتك وما تبذله لها من النقود التي تحرم نفسك منها لاجلها . فلما طلبها فيكتور بذلاقة لسان وحسن سياسة وسلامة نية أجبناه الى طلبه عن طيب خاطر طمعاً بماله وثروته وحباً في تحسين حال عزيزة وهنائها بهذا المال الوفير والغنى الواسع

— ولماذا لم تسألوا عنه وتستقصوا عن أخباره قبل ان تجيبوه الى طلبه ؟

— ان فيكتور عظيم لا يحتاج اسمه الى تعريف ولا سؤال

— وهل رضيت عزيزة به ؟

— نحن رضينا وقضي الامر . وليس للبنت الا التسليم بأمر أهلها والاذعان لارادتهم

— لقد جنيتم يا يوسف جناية لا تقبل الغفران وسوف ابين لك وجه الغلط وسوء المصير . انكم استسلمتم استسلام العميان لقائدهم فلايدرون الى اي طريق هم مسوقون . وسآتيك صباحاً بالبرهان والسلام عليك الآن

١٩

بعد انصراف مصطفى دخل رجل على يوسف فسلم عليه وحياه بالتجلة والاعظام فرد يوسف التحية باحسن منها ونظر الى وجهه فلم يتذكر انه يعرفه او سبقت له رؤيته ولكنه ككل مصري يحسن ملاقاة الضيف ويكرم مثواه قدم له كرسياً وطلب له القهوة وصار يلقي عليه تحية بعد اخرى ثم دارت بينهما المحادثة الآتية . قال يوسف

ـ هل أتشرف بمعرفة حضرتكم ؟

ـ محسوبكم مقار . ارسلني فيكتور لمقابلة حضرتكم

ـ اهلاً وسهلاً ومرحباً . وكيف حال جنابه ؟

ـ بخير يهديكم السلام ويخبركم بانه في كل مقابلاته الاخيرة لخطيبته عزيزة كان يراها نافرة منه غير متوددة اليه وذلك بخلاف ما كان يعهده فيها في الماضي فقاطعه يوسف قائلاً :

ـ انها كانت صغيرة لا تهيب من شيء واما الآن فقد

صار نفورها امراً طبيعياً لانها كبرت وادركت معنى الخطوبة. والنفور عادة الابكار

ـ ان ما تقوله حضرتكم حقيقة لا ريب فيها ولم يكن فكتور ليهتم بالامر لو لم يتحقق ان نفورها كان لغير السبب الذي اظهرته حضرتكم

ـ ارجوك الافصاح اذاً

ـ تحقق فيكتور انها لا تحبه وغير راضية به . فقال له يوسف بحدّة

ـــ ليس لها ان تحب أو تكره ما دمنا نحن راضين

ـــ نحن نعرف ذلك ومتكلون على وعدكم لنا ولكن الذي اخافنا هو الذي حدث جديداً . فقاطعه يوسف ايضاً

ـــ قلت لحضرتكم يا معلم مقار انه قلما يهمنا في مصر رضى البنات في هذا الشان ومع ذلك فان النفور طبيعة الابكار

ـــ فهمنا ذلك ولكن ارجوك الاصغاء قليلا وان لا تقاطعني حتى اتم لك الحديث

ـــ تفضل

— تعلم حضرتكم ان فيكتور لم يطلب يد عزيزة طمعاً في جمالها فقط بل لانه يعلم سابق عز اهلها وطيب عنصرهم وكرم اصلهم فلما رأى ما هي عليه من الجمال وما هي فيه من اضطراب الحال وتعس المآل طلبها منكم شفقة بها وحباً في اصلاح حالها فانعمتم بها وها انتم الآن ترون ما يبذله في نعيمها وتحسين امرها فلم يكن لينتظر منها النفور. تقول حضرتكم ان النفور عادة الابكار ولكن ما جوابكم ان قلت لكم انه مقصود منها وانها تفعله بتحريض وبناء على ارشاد واغراء ؟

— انك واهم يا معلم مقار

— بل هي الحقيقة يا يوسف افندي

— وكيف ذلك

— انها تميل لشاب في حارتكم اسمه مصطفى كامل وهو يعشقها ويحرضها على العصيان

— يا للعجب أيجسر هذا الصغير ان يقدم على هذا الامر . الآن فهمت القصة ولا حاجة الى بيان . فارجوك تهدئة خاطر فيكتور الى ان أقابله في هذا المساء . وليكن براحة بال

فعزيزة جاريته ونحن خدامه وبلغه عني السلام . فشكره المعلم مقار شكراً جزيلاً واوصاه بفحص الامر بحكمة وروية ووعده بمقابلة فيكتور في المساء

٢٠

أخذ يوسف بعد انصراف المعلم مقار يفتكر في مقاله ويستعظم الخبر ويرتجف خوفاً من غضب فيكتور عليه

ان يوسف ابن عم عزيزة هو الذي وعد فيكتور بها وسلمه يدها على مرأى من بعض أهلها وأقاربها فكيف يطمع الآن في رضاه عليه مع علمه بما فعله مصطفى

كان كل خوف يوسف ان يعلم فيكتور أنه يعرف مصطفى ويعلم بافعاله وكان يوسف قد مال قليلا نحو مصطفى ولكن الآن ذهبت شجاعته وصار يمقته ولا يحب ان يراه

كان فيكتور يخلب عقل يوسف وغالب وابراهيم وبعض أهل عزيزة بما يبذله لهم من الاصفر الرنان وما يعدهم بنيله من الاماني الغالية فضلاً عما اشتهر به عندهم من قوته وشجاعته

وشدة بطشه لذلك كانوا يحبونه ويجلونه ويخافونه . فماذا يفعلون بمصطفى ليرضوا فيكتور ويبعدوا ظنونه السيئة عنهم

كان مصطفى صغيراً لا ينتفعون منه كما ينتفعون من فكتور وقد كان لا حول له ولا قوة على مناظرة فيكتور العظيم الشأن فسهل على يوسف الامر بتصوره ذلك وصمم نيته على مجافاة مصطفى وابعاده ما استطاع عن عزيزة وتبغيضها فيه بكل ما يمكنه من الحيل

وبينما كان يوسف مضطرب الفكر شديد الحيرة في الامر جاء اليه ابراهيم وعلائم الغضب تلوح على وجهه فلم يلق تحية ولا سلاماً بل بدأ بقوله.

ـ هل أعجبتك جرأة مصطفى علينا يا يوسف ؟

ـ حقاً لا أدري ما العمل يا إبراهيم . وهل بلغك أنت شيء عنه ؟

ـ جاء الي الآن المعلم مقار من قبل فيكتور وأبلغني استياءه من نفور عزيزة منه بناء على تحريض مصطفى ولقد أهاج المعلم مقار عواطفي بكلامه حتى استفزني الكدر الى الحضور اليك

ـ عجباً وما قصده من هذه المقابلات فانه كان عندي هذه الساعة . وأبلغني ما ابلغك . ولكن على كل حال فالمسألة تهمنا كثيراً . يجب ابعاد مصطفى عن عزيزة بكل الوسائل الممكنة. مع العلم بأنه جريء وجسور وليس من السهل ابعاده . فما العمل يا أخي ؟

ـ اراك معجباً به يايوسف . واني لاعجب من إكبارك لمصطفى الى هذا القدر . هل يصعب علينا جميعاً مع فيكتور والمعلم مقار ومساعديهما أن نمنع مصطفى الصغير الذي لا يزال في أحضان المدرسة ونبعده عن عزيزة ؟

ـ أنت لا تعرف مصطفى وعزمه يا ابراهيم

ـ بالله دعني من كلامك يايوسف . ما هذا الخوف ؟ أليس صادق ابن أخيك مع مصطفى في المدرسة ورفيقه في الدرس. فلماذا لا نتخوف منه كما نتخوف من ذاك ؟ بل لماذا تختلف أفكار صادق عن أفكار مصطفى ؟ بل لماذا هما خصمان عظيمان؟

والنتيجة أن تأمر عزيزة بعدم مقابلة مصطفى قطعياً وتحظر عليه أن يخاطبها وحينئذٍ نكون قد ابعدنا بين قلبيهما

فلا يجدان سبيلاً الى المحبة ان كان لها وجود كما يظن فيكتور

ـ ولكنك تعلم ان اهل مصطفى واخوانه ينتصرون له ضدنا ونحن لا نودّ إغضابهم لاننا جيران واهل

ـ لا يهمنا غضبهم يا اخي وقد جاء في المثل العامي « اذا جاءك الطوفان فضع ولدك تحت رجليك » .

ـ لا بأس . وفي هذا المساء نذهب معاً لمقابلة فيكتور ونفهمه ان الامر الذي يخشاه لا اهميـة له على الاطلاق وقد لا يكون له وجود بالمرة

ـ سأجيء اليك في الميعاد . قال ذلك وانصرف

٢١

في عصر هذا اليوم اجتمع المعلم مقـار وصديقه الخواجا صيرفي وفيكتور بمنزل الاخير بشارع .... ودار بينهم الحديث الآتي :

(مقار) ذهبت الى يوسف افندي وابلغتهُ الرسالة وهوّلت عليه الامر ولم اتركه حتى رأيتهُ يكاد يختنق غيظاً من مصطفى

وكذلك فعلت مع المعلم ابراهيم وغالب ايضاً

(فيكتور) احسنت كثيرًا

(صيرفي) انني وصديقي الخواجه نمروذ في غاية العجب من هذا الاهتمام الزائد والخوف العظيم من شاب لايزال في المدرسة يهاب مقابلة الرجال فضلاً عن الوقوف في تيارهم والتصدي لمعاندتهم . انكم بعملكم هـذا تجرئونه عليكم وتطمعونه فيكم

(مقار) يظهر انك لا تعرف الشاب يا معلم صيرفي . انه شاب خارق للعادة نريد تكسير شوكته قبل ان تعظم واطفاء ناره قبل ان تضطرم

(فيكتور) نعم هو ما يقول يا معلم صيرفي

فابتسم الاخير دلالة على عدم التصديق وهزّ كتفيه ببطىء وقال . عليّ ان اقوم بما عهدتما اليّ به وان لا ادخر جهداً في تنفيذه وعليكما احراز ثقة سائر اهل الفتاة بكما

— هوّن عليك فليس لدينا اسهل من ذلك والذي يُظهر بعض الحذق والمعرفة فالدينار يسكته والوعود الذهبية تقصره

وانما الخوف من الشاب واقرانه

(صيرفي) عليكما ان تبذرا بذور الحسد بين اقرانه وهي وحدها تنبت البغضاء وتثمر التفريق بينهُ وبينهم وتكفينا شره

(المعلم مقار) خطر لنا هذا الفكر وقد اعددنا له المعدات

(صيرفي) حسناً فها أنا الآن منصرف

وقبل انصرافه دخل الخادم وناول فكتور بطاقة زيارة فلما قرأها رمى بها الى المعلم مقار فقرأها ايضاً ثم ناولها الى المعلم صيرفي الذي قال بعد تلاوتها . يجب ان انصرف قبل دخول يوسف وغالب لئلا يخامرهما الظن في اجتماعنا هذا . ثم نظر الى فكتور نظرة المستفهم فقال له

ـ هو ما ترى فاخرج من هذا الباب الى الدهليز الداخلي ثم افتح الباب السري بالمفتاح الذي اعطيتك اياه واخرج الى الشارع فلا يراك احد

٢٢

علم القارئ مما تقدم ان فكتور شعر بامر مصطفى

وحسب له حساباً كبيرًا مع ان مصطفى كان لا يزال تلميذاً بمدرسة الحقوق

كان له ان يخاف وينظر الى مستقبل هذا الشاب بعين الحذر خوفاً منه على خطيبته عزيزة لان مصطفى من يوم دخوله مدرسة الحقوق اجهد نفسه كل الجهد واظهر نور ذكاء ساطع بهر الافكار وخلب الابصار

كان شعلة نشاط تضطرم اضطراماً تدهش الرائي وتحير الناظر . كان اعجوبة النباهة والفطنة في مدرستي الحقوق الخديوية والفرنسوية لم يتخلف سنة في احد فصولهما ولم يلاحظ عليه احد انه تأخر يوماً واحداً عن الذهاب اليهما ولم يعبهُ احد بعدم حفظ دروسهِ فيهما

ألف كتابه « اعجب ما كان في الرق عند الرومان » و « حياة الامم » وروايته « الاندلس » فأظهر من قلمه في هذه المؤلفات علماً واسعاً واطلاعاً كبيرًا وبلاغة عظيمة واسلوباً في التاليف غريباً

وأصدر ايضاً مجلة المدرسة فحازت القبول الزائد لدى

كل طبقات سكان مصر واعجبت بها نظارة المعارف العمومية المصرية فاشتركت فيها بخمسين نسخة

كانت المجلة ميداناً له فسيحاً أظهر فيه وطنية صادقة وصرخ بلسانها صرخة جديدة الفتت اليه المصريين وكانوا اشتاتاً فتجمعوا حوله ينصتون فاعجبتهم النغمة واطربهم الصوت وكان دور الغناء جديداً لم يتعودوا سماعه فاشجاهم وقعه على مسامعهم وقلوبهم فاحبوه وطلبوا أعادته مراراً وهو لا يكلّ من الاعادة ولا يضجر من التكرار

أهل المودة والسنن　　هيا لكي نعلي الوطن
ونعيد مجداً قد دفن　　ونفوز بالنصر المبين
فالحرُّ لا يرضى المقام　　بمكانة فيها يضام
والذلّ تأباه الكرام　　والعزّ للعليا رهين

فكيف لا يتخوف فيكتور ولا يتهيب . كيف لا يحذر ولا ينظر بعين الخوف الى هذه الجذوة التي تضطرم او كيف لا يحسب لها حساباً كبيراً ؟ ؟

كان فيكتور ممن يحسبون لكل صغيرة وكبيرة حساباً

ويفحصون بكل دقة وامعان كل ما يقع تحت أنظارهم. فكان بعيد النظر في الامور فلما رأى مصطفى واستعداده الفطري العظيم وقوته العجيبة ونبوغه بين اخوانه وظهوره فيهم بهذا المظهر الغريب والتفافهم حوله وحبهم له تخوف منه خصوصاً لما يعلمه عنه من حبه الفطري لخطيبته عزيزة وعشقه لها وكلفهُ بها . وزاد خوفه حينما تحقق تحريضه لها على النفور منه وعصيان اهلها . فارسل المعلم مقار الى يوسف كما علمنا

٢٣

علم مصطفى بما تحدث به القوم عنهُ وباهتمام فيكتور بأمره وتخوّفه منهُ فلم يعبأ ولم يحذر

قال لنفسه يوماً « لقد صرت يا مصطفى مرمى الانظار وصار الرجال يهابون مستقبلك ويحذرون من قابل ايامك. أحببت يا مصطفى فتاة في حداثة سنك فلما كبرت الفيتها في قبضة غيرك وهذا الغير شديد البأس عظيم الاسم يهابه العظماء ولكن حبيبتك غير راضية به ولا يمكنك تسليمها اليه والا

سقطت من عينيها واعتبرتك ضعيفاً وكنت في نظر نفسك واهلك صغيراً او جباناً »

كان مصطفى بين نيران متعددة . يخاف غضب عزيزة عليه . وظنها فيه الضعف ثم هو من نفسه لا يطيق فراقها ولا يمكنهُ الصبر على بعدها فكيف يقدر على تركها لفيكتور . ثم هو ايضاً لا يطيق احتمال اهانة من احد ومزاحمة فيكتور له على اليفة صباه . وانتشالها من يده اهانة عظمى لا تتحملها نفسه . وهو ايضاً اذا شرع في عمل لا بد ان يتممه فكيف لا يخلص عزيزة من خطبة فيكتور وقد شرع في العمل ووعدها باتمامه . وهو من الذين اذا قالوا فعلوا وقد قال ان عزيزة لن تكون لفيكتور فكيف لا يعمل على تحقيق ما قال

كانت هذه العوامل وغيرها ألسنة حادة تحضهُ على العمل وتدفعهُ الى الامام وتضطره الى تحقيق اقواله وتنفيذ وعوده وكان اشدها دفعاً عشقه لعزيزة وكلفه بها فصار من ذلك الحين يستهلك في سبيل الوفاء بوعده ويبذل كل مرتخص وغالٍ لتنيفذ آماله وامانيه . فاختطّ لنفسه خطة ووطد عزمه

على السير فيها فرأى من اللازم ان يقابل عزيزة اولا ويبث اليها بعض افكاره ويكاشفها بما عزم على عمله لتكون عالمة بنواياه ومطلعة على افعاله . فقصد الى منزلها فاذا هي في النافذة بانتظاره والقلق ظاهر عليها والاضطراب واضح من اشارتها

كريشةٍ في مهب الريح طائرة
لا تستقرُّ على حال من القلق

فلما ابصرته بادرته باشارة التحية وابتسمت له ابتسام العاشق الولهان فقابلها بالمثل واظهر لها انه يريد مقابلتها فاشارت اليه ان ينتظر قليلاً ثم اسرعت الى مقابلته ففتحت باب المنزل ومدت يدها اليه فتصافحا بشوق لامزيد عليه ثم جذبتهُ بلطف الى الداخل واوصدت الباب وقالت

ـ ماذا ارى يا مصطفى ؟ ان القوم يأتمرون بك ليبعدوك ولا ارى لذلك سبباً واضحاً

ـ وهل من سبب اكبر من جهري بمحبتك يا عزيزة ؟

ـ آه يا مصطفى . ليتني لم اعرفك . اني سببت لك الشقاء

ـ لا ترجعي الى النغمة الماضية ألم اقل لكِ ان لا تفتكري في شقائي. هل تعدُّ شقاءً محبتي لحياتي ؟ انتِ الحياة ولا حياة لا بكِ ياعزيزة فكيف لا احب حياتي ؟ ثقي انني سعيد جداً بهذا الحب . لم احبكِ باختياري يا عزيزة ولكن بالرغم عني . من يرى هذا الجمال الباهر ولا يعشقه ؟

ـ هل علمت ما قيل بشأنك ؟

ـ عرفت كل شي

ـ وعلى ماذا عوّلت ؟ اني اخاف عليك يامصطفى فبالله دع الخونة يفعلون بي ما تزينه لهم الخيانة والله يقتص لي منهم بعدله واسترح انت فاني اخاف عليك من بطشهم

ـ اقصري بالله هذا الكلام فاني قد عزمت على الدفاع عنك والوقوف امام كل جبار عنيد في سبيل انقاذك من يد هذا المغتصب الظالم وانه لتخرج روحي من جسمي ولا ارجع عن عزمي ابداً . اني بدأت في العمل ومن المحال ان ارجع قبل اتمامه . قلت انني اريد ان أنقذك ولا بد أن أفعل

ـ بورك فيك يامصطفى ولا حرمني الله من شجاعتك وبأسك

ـ هذا واجب انساني وطبيعي أيضاً فلا أنتظر عليه اجراً ولا شكراً فاسمعي الآن ما عزمت على فعله

٢٤

تركنا يوسف افندي وغالباً على باب فيكتور يستأذنان بالدخول عليه وتركنا المعلم صيرفي خارجاً من الدهليز الداخلي حيث يصل الى الباب السري للمنزل ليخرج دون ان يراه احد وهكذا خرج وامر فيكتور خادمه بادخال المنتظرين فدخلا وسلما وجلسا وبعد ان شربا القهوة وناولهما المعلم مقار سيجارتين

(قال يوسف) اخبرنا اليوم المعلم مقار عن استيائكم من نفور عزيزة

(فيكتور) نعم . وانا الذي ارسلته اليكم

(يوسف) ولكن تعلمون جنابكم ان لا داع للاستياء من نفور الفتيات

(مقار) هو كذلك يا يوسف افندي لو لم يكن السبب الذى اخبرتك عنه

(يوسف) انهُ ايضاً لا يخيف ابداً ..

(غالب) وهل يخيفنا شاب مثل مصطفى ويعارضنا في رغائبنا

(فيكتور) انا لا اخافه وحده ولكنني اعلم انهُ سيتغلب يوما ما على عقول بعض اقرانهِ وهم يؤثرون على افكاركم فتنضموا اليه . ولا يخفاكم اني الآن لا استطيع التنازل عن عزيزة لانها صارت في يدي وحلت محلاً عالياً من قلبي . فويل لكم يوم تنقضون عهدكم وويل لكم يوم تخونون

(غالب) ثق بنا كل الثقة فقد قررنا مصادرته وابعاده عن عزيزة

(مقار) نعم الرأي ويجب عليكم من جهة اخرى ان تشددوا النكير على الفتاة وتحظروا عليها مقابلته

(فيكتور) لا : لا . الاوفق عدم ظهورنا امامها بمظهر العداء . ويمكننا فقط تنفيرها منهُ بوسائل عديدة كأن نفهمها انهُ شاب مغرور بنفسه يجرها بغروره الى مستقبل لا تحمد عقباه وانهُ لا حول له ولا حيله . وانهُ اضعف من ان يقف امام رجل

وان حبه لها لا يلبث ان يزول كما هو شأن كل شاب تستفزه في اول ايامه نشوة الشباب . ثم من جهة اخرى اكون انا عاملا على عرقلة مساعيه واحباط اعماله وآماله :

(يوسف) اذاً لا نظهر له استياءنا منه وكرهنا له ؟

(فيكتور) هذا هو رأيي

(مقار) أنت مسالمٌ دائماً يا فيكتور

(فيكتور) ليست هذه طريقة مسالمة يا معلم مقار بل أنها حيلة اتبعها في سلم وفي حرب فبينما نحن نسالمه في حبه نحاربه في مستقبله ونوقع بينه وبين اقرانه وعندما يرى نفسه وحيداً معدماً يرجع على اعقابه وتكرهه عزيزة من نفسها شأن كل فتاة اذ تعلم انه غشها وغرر بها

(غالب) انها سياسية حسنة ونحن من جهة اخرى تغري صادقاً ابن اخي فيساعدنا عليه لانه قرينه في المدرسة ويخالفهُ كثيراً في افكاره

(مقار) انها طريقة حسنة وحبذا لو استملنا كثيرين من امثال صادق

(فكتور) هذا امر سهل جداً فاتكل على الحذق والاصفر الرنان .

(يوسف) اذاً قد اتفقنا على ذلك

(فيكتور) نعم

(يوسف) هيا بنا يا غالب

وسلما وانصرفا وظل مقار مع فكتور يضحكان ضحكة الفائز ويهزّان رأسيهما استغراباً من بساطة اهل عزيزة وجهلهم ثم قام مقار فودع فيكتور على ان يلتقيا وقت الحاجة

٢٥

بدأ مصطفى يقصّ على عزيزة ما عزم على فعله وما دبره للوصول الى نجاتها من يد فيكتور فقال

اعلمي يا عزيزة ان اهلك هم الذين طوّحوا بك الى هذه الهوّة العميقة لجهلهم وبساطتهم ودناءتهم وجبنهم فهم لجهلهم اغترّوا بفيكتور ولبساطتهم خدعتهم وعوده الكاذبة ولدناءتهم خلبتهم دنانيره اللامعة ولجبنهم انهزموا امام سطوته الوهمية

فهم الآن قد دخلوا في وكره وسقطوا في فخه وتورطوا معهُ واستحال عليهم الرجوع والافلات من يده

لهم ان يبقوا في قبضته ويقدموا انفسهم له ولكن ليس لهم ان يتصرفوا في حرّية الغير او يوقعوه معهم ويقدموه لهُ بيدهم . ليس لهم ابداً ان يتصرّفوا بحريتك رغماً عنك ويقدموكِ دون رضاكِ لمن لا تحبينه

مضى الزمن الذي كانت الفتاة فيه معدودة ضمن المتاع واثاث المنازل تباع وتشرى كالكراسي والمفروشات دون معارض ولا ممانع وتقاد الى الزوج دون ان يكون لها حق الاستشارة او ابداء الرأي كما تقاد النعاج الى المذابح . هم رضوا به ولكنكِ غير راضية به فماذا يفعلون لو اعلنتِ عدم رضاكِ؟ يقول فيكتور وانصاره اننا في زمن الحرية الذي يحق فيه الجهر بالرأي فلماذا لا يعاملونكِ بحسب هذا القول . انهم اذاً لكاذبون

ان الشرائع السماوية والقوانين الانسانية لا تضغط على حرية الفتيات الى هذا الحد بل تعطيهنّ حق ابداء الرأي في

موضوع الخطبة والزواج منعاً لما يحصل في مستقبل الحياة الزوجية فكيف يخالف اهلكِ الشرائع والقوانين ؟

لا يعدُّ ذنباً تمسك الانسان بحقه الممنوح له من الطبيعة وليس عاراً ان يقول المظلوم انني اشعر بالظلم والعسف وليس كفراً ان يقول الانسان ان امي ولدتني حرًّا ويريد الله ايضاً ان اكون حراً فلا ارضى العبودية . بل العار على من يقول انه يحب الحرية ونصرة المظلوم ثم تدل افعاله على غير اقواله بل تبرهن امياله على عكس كلامه بكل صراحة ووضوح

يدعي فيكتور واصحابه أنهم تربوا في اوربا وتلقنوا الحرية او المدنية وتعلموا تعليماً عصرياً صحيحاً وصاروا فلاسفة ودكاترة وعلماء وانهم يعرفون معنى الحياة ولذة المعيشة ولكنهم وحقك يا عزيزة وانه لقسم كما تعلمين عظيم يفعلون افعالاً خبيثة تدلّ على لؤم شديد ودناءة كبيرة وحطة متناهية وجهل فاضح

يقولون انهم أحرار وأنهم نصراء الانسانية ولكنهم يكرهون المظلوم اذا تألم ويسعون في استعباد الاحرار ولولا ذلك لما تألموا من جهركِ بطلب الحرية ولا تغيظوا من ميلكِ لاختيار

الزوج . يقولون ليس من حق الفتيات اختيار الزوج فهل الذين تعلموا العلم الحقيقي وتربوا على المبادىء القويمة يقولون ذلك ؟

عرف فيكتور اني اعشقك وأنك تحبينني ولست راضية به فهل يستمر على مصادرته هذه ويضيق على حريتك اذا كان من انصار الحرية والانسانية

كان مصطفى يتكلم بانفعال شديد وتأثير عظيم واستياء ظاهر حتى خشيت عزيزة ان يؤثر ذلك على صحته فأظهرت الابتسام والانشراح وابدت عدم اكتراثها باهلها وبينت لحبيبها مصطفى شدة تمسكها به وعزمها على ان لا تمكن اقاربها من الوفاء بوعدهم لفيكتور فكان لكلامها تأثير حسن في قلبه فخمدت نار غيظه وهدأت ثورة غضبه وانبسطت اسارير وجهه وقال لها.

الآن يا عزيزة يلزمنا التحفظ ما امكن والاحتراس بكل ما يستطاع لانني اعلم انهم يدبرون التدابير ويعدون المعدات لابعادي عنك وتنفيرك مني . فتدبري كل ما يقال واحرصي ان يؤثروا عليك

— حاشا لله ان يؤثر عليّ قول او يصادف كلامهم مني

اذناً سامعة

ـ وقد رأيت ان اعلمكِ القراءة والكتابة حتى اذا تمكنوا من ابعادي عنكِ تكونين قادرة على الكتابة لي بكل ما تحتاجين اليه

ـ يا له من فكر جميل لاعدمتك يامصطفى . ان قلبي يتقطع كلما رأيت مثيلاتي من الجيران يقرأنَ ويكتبنَ ولا اقدر على مجاراتهن او التلفظ بينهن حينما يتلذذن بالمطالعة والمناقشة .فلو تم ما ارتأيته لي وتعلمت على يديك وصرت قادرة على مناظرتهن يكون لك في عنقي طوق جميلٍ لا استطيع القيام بوفائه لك ويكفيك أن اكون مديونة لك وانت صاحب اليد الطولى عليّ والفضل العظيم

ـ لا فضل ولا جميل وانما هو واجب اقوم به نحوكِ وليكون ايضاً سبباً لمبادلة الكلام بيننا حينما لا تمكننا الظروف من الاجتماع ولله المستقبل فلا ندري ما هو مخبوء لنا طي ايامه ولياليه . والآن فانا ذاهب لاعود صباحاً حيث نبتدأ في التعليم فاستودعكِ الله

٢٦

كان مصطفى كامل في مدرسة الحقوق يزداد شهرة يوماً عن يوم ويذاع اسمهُ حتى عرفه الكثيرون ولهج بالثناء عليه كل من سمع باسمه ووقف على شيء من اعماله الحماسية الوطنية المفيدة فاجتمع تحت رئاسته فريق من الطلبة عظيم تكونت منهم جمعية تأتمر بامره وتنتهي بنهيه فكانت بفضله تتلألأ بينهم انوار الوطنية اللامعة فتضيء ما حولهم من ظلام الكسل والجمود السائد بين غيرهم من الطلبة وسواهم من الرجال

بثّ فيهم روح النشاط والعمل ونفث بينهم ريح الشهامة والشجاعة فحركت افئدتهم وهزّت قلوبهم فتنبهت افكارهم وتيقظت احساساتهم وصاروا كلهم وطنيين لا يخشون في الجهر بوطنيتهم احداً ولا يهابون في انتسابهم للوطنية عظيماً

عظم شانهم وارتفع امرهم وكثر عددهم واشتد عضدهم فصاروا يجتمعون اجتماعات علنية وجمعيات عمومية ويقترحون اقتراحات وطنية مفيدة ويتناقشون في المواضيع الاجتماعية

والحاجيات العمومية كأنهم مجلس شورى البلاد او النائبون عن الامة . وبذلك تربى في نفوسهم الاحساس بقوة الذات وتولد في افئدتهم الشعور بالمسئولية الواقعة على الامة في ذات كل فرد. لم ترهبهم القوة ولم تخفهم العظمة فكانوا لا يهابون الاحتلال ولا يرهبون بطشه لانهم كانوا على الحق ومن كان على الحق فلا يضام ابداً

ذلك كان اعتقادهم وبه تشجعوا وعليه اعتمدوا وكانوا يتكلمون بلسان الامة ويطالبون مطالبة عامة فاذا قيل لهم كيف لا تخافون قالوا هم يقولون انهم يحبون الحرية ويساعدون مهضومي الحقوق على نيل حقوقهم وينصفون المظلومين من ظالميهم فكيف يكرهوننا اذا طلبنا الانصاف وطالبناهم بالعدل ورد الحقوق ؟ نحن لا نجادلهم الا بحجتهم ولا نخاطبهم الا بكلامهم ولغتهم

عرف الوطني والاجنبي مصطفى كامل فأحبه الاول وخافه الثاني فصار على الحالتين عظيماً مهاباً . تعلق بالعرش الخديوي الكريم وحوّل القلوب الى محبته رغبة في انقاذ مصر من سلطة

الاجنبي ولا يكون ذلك الا بالالتفاف حول أمير البلاد.

اقترح أن يحتفل بعيد جلوس الخديوي أسوة برعايا سائر الملوك فحاز اقتراحه قبولاً وكان هو الرئيس لاول احتفال أقيم بمصر لاول مرة حيث احتفل به في قاعة مطعم سانتي بحديقة الازبكية في ٨ يناير سنة ١٨٩٣ فخطب على المجتمعين من الطلبة والاعيان خطبة صادفت هوىً من نفوس السامعين وكان لها تأثير على الافئدة جميل . ومن ذلك الحين عظم شأن الفتى وذاع اسمه وشاع وعرفه الخاص والعام والتفَّ حوله كل وطني مما أخاف الاحتلاليين وأرجف فيكتور وأغاظه فشرع يعد المعدَّات ويهيء المكائد فأرسل الى المعلم مقار والمعلم صير فجاءا اليه ودخلا عليه في الغرفة فوجداه يكاد يتميز من الغيظ ويتمزق من الكدر والحنق فعلما حالاً السبب وعرفاه لانهما كانا مثله يكاد يقتلهما ارتفاع شأن مصطفى كامل وعلوّ اسمه رغماً عما كانا يبذلانه في سبيل تقدمه من وسائل التعجيز والتثبيط وما يلقيانه بين يديه من عثرات وعقبات. فلما رآهما فيكتور تحرك في مجلسه واشار اليهما بالجلوس فجلسا صامتين

٢٧

فارقنا عزيزة على باب منزلها بعد ان فارقها مصطفى على عزم العودة في الصباح وقد اخذ طريقه الى منزله مطأطئ الرأس كثير الافكار والهواجس ووقفت عزيزة تشيعه بنظرها وقلبها يخفق ولا تدري معنى لخفقانه ولا سبباً لارتجاف اعصابها واختلاج اعضائها

ولما غاب شخص مصطفى عن نظرها اوصدت الباب وارتدّت الى غرفتها ووقفت في النافذة وكان الهواء بارداً فاقفلت الزجاج والصقت عليه جبينها الملتهب وظلت ساهدة وقد شردت إفكارها وتاهت عن الوجود . استمرت في ذهولها وظلت على سكونها فلم تتحرك الا على دقات ساعة كبيرة في المنزل الملاصق لمنزلها فأخذت توالي العدّ بصوت منخفض حتى سكتت الساعة فقالت نحن في نصف الليل ياللعجب . الساعة (ستة عربي) وانا واقفة على قدميّ لم ادخل فراش نومي . اين كنت وبمن افتكر ؟ ! الا رعى الله الحبيب وحرسه بعين

عنايتهِ . بورك فيك يامصطفى ما اطيب قلبك واخلص حبك .
يلومونني على حبي لك وعشقي اياك فمن يعرفك حق المعرفة
ولا يهيم بك هياماً ؟ من يقرب من حرارة هذا القلب الطاهر
ولا تلذعه حرارة الحب والغرام ؟ من يلمس يدك ولا تجذبه
اليك كهرباء الاعجاب والاعظام ؟ الا بعداً لقوم يبعدونني عنك
ويبغضونني فيك . انت الآن بلا شكٍ امام مكتبتك تعد
ما ستلقيه عليَّ من الدرس صباحاً وتعد معدات تعليمي
وتنويري فطوبى لي بمحبتك وطوبى لي بوجودك . اراك كل ليلة
من هنا بقلبي وانظر اليك من نوافذ بصري وارمقك بعيون
فؤادي فاجدك ساهراً مشتغلاً مجدًّا لا تنام الا قليلاً فأذوب
شفقة عليك واسهر هنا مساعدة لك

قضت الفتاة الجميلة شطراً من الليل ولم يدفعها الى فراشها
الا صوت الساعة حيث دقت ثماني دقات فدخلت الى سريرها
واغمضت جفنيها واخذت تعيد الفاظ مصطفى وتتلذذ بمراجعة
كلامه حتى غلبها النعاس ونامت

كانت اعمال مصطفى وافعاله وحركاته وسكناته في

منزله داخل غرفة نومه مشابهة لاعمال عزيزة وافعالها تماماً ثم انصرف الى فراشه في الساعة الثامنة كما انصرفت فكأنه كان يراها ويقلدها تمام التقليد فكان كما قال الشاعر العربي الحكيم

قلوب العاشقين لها عيونٌ ترى ما لا يراه الناظرونا

واصبح يوم الجمعة والمدارس مقفلة ولكنهُ قام من نومه كعادته في كل صباح فاصلح من شأنه وادّى فريضة ربه وتناول طعام افطاره وقصد الى منزل حبيبته وهو واثق من قيامها على انتظاره فوجدها في النافذة تبتسم لمرآه ابتهاجاً وانشراحاً فحياها باشارة من يده وحيتهُ وصعد اليها حالاً وبدأ يكتب لها في كراسٍ جاء به اليها لهذه الغاية فعلمها الحروف الهجائية في يومه ولم تحمله عناءً في التعليم ولم يتركها الا وقد اعادتها عليه مراراً عن ظهر قلب دون تلعثم ولا تحريف فانشرح صدر مصطفى وابتهج وتذكر لساعته تحقير الاعداء والاجانب لشأن المصري وظلمهم له ولصقهم المعائب والمخازي به واعتبارهم اياه جاهلاً وقليل الادراك والذكاء فقال في نفسه تباً لهم لينظروا

فتاة من المصريين تعلمت الآن في ساعة واحدة من الزمن حروف الهجاء عن ظهر قلب وأعادتها كأنها قارئة من قبل . فما اتعس المصري معكم وأضيعه بينكم معشر الظالمين

ثم هنأ عزيزة بهذا النجاح الباهر والذكاء العجيب ومدحها على نشاطها واجتهادها وانصرف

٢٨

مرت ساعة على وجود المعلم مقار والمعلم صيرفي والخواجه نمروذ في حضرة فيكتور وكل منهم صامت يتفكر فما كان يرى الناظر اليهم الا رؤسهم تتحرك ذات اليمين وذات الشمال وصدورهم تعلو وتهبط ولا يسمع لهم غير صوت التنهد والتحسر مما دل على أنهم في هم شديد وغم عظيم . ذلك لانهم بذلوا كل جهدهم وصرفوا معظم وقتهم في عمل الوسائل ونصب المكائد لفشل مصطفى فما كان يزداد الا فوزاً ويلقون فشلاً

وبعد صمت طويل تحرك فيكتور في مجلسهِ فتحركوا لحركتهِ وحولوا أنظارهم اليهِ ومالوا نحوه فقال

ـ كيف كان الاحتفال في مطعم سانتي

(مقار) وطنياً بمعنى الكلمة

(صيرفي) ولكنهُ لم يكن عظيماً

(فيكتور) سيعظم بتوالي السنين والنار من مستصغر الشرر

(مقار) وما ذا يخيفنا منهُ انّا لا يهمنا الا مصطفى وها نحن لا ندّخر جهداً في عرقلة طريقهِ

(فيكتور) كيف لا يهمنا يامعلم مقار ! انني بصفتي اجنبياً لا اودُّ تعلق المصريين بعرش الخديو فان بتعلقهم هذا تزداد حمية وطنيتهم ويصعب مراسهم ونحن لا نريد ذلك . ويخيفنا حصوله . أما من جهة مصطفى فهو المؤسس لهذه الحفلة والمقترح للاحتفال وهو الذى ترأس الاجتماع وفي ذلك من علوّ مقامهِ وارتفاع شأنهِ ما لا يخفى عليك فسينتشر اسمهُ على صفحات الجرائد في انحاء القطر وجهات العالم فيعرفهُ الجميع ويثني عليهِ الوطنيون ويعجب بشجاعة شبابه كل انسان . ثم تعلم عزيزة قدره وتعجب بهِ فتتأصل محبتهُ في قلبها ويزداد تعلقها به ويذهب سعينا الماضي سدىً ويضيع ما بذلناه

لاهلها هباءً منثوراً

(نمروذ) يمكننا الانتفاع الآن من ارتفاعه هذا

(فيكتور) وكيف ذلك

(نمروذ) بان نسعى في رفتهِ من مدرسة الحقوق بحجة قيامه بالاعمال السياسية المحظورة على الطلبة فيكون هذا الرفت مثبطاً لعزيمتـه وقاتلاً لشعوره او على الاقل مشوشاً لافكاره ومضيعاً لمستقبله فيضطرب حاله وربما يتكدر مجرى الصفاء بينهُ وبين عزيزة وتأتي الايام بما نؤمل

(صيرفي) فكرة جميلة . وانا اقابل الليلة يوسف افندي وغالباً والمعلم ابراهيم وسائر اهل عزيزة واغير افكارهم من جهة مصطفى وارهبهم اذا مالوا اليـه ثم اقابل صادقاً وآخذ رأيه واستعين به على استجلاب قلوب فريق من الطلبة

(فيكتور) كان هنا الآن المعلم سالم والشيخ عبيد وفهيم بك وبعض اصدقائنا فعرضوا عليّ نتيجة اعمالهم التي عهدت اليهم القيام بها فرأيت نجاحاً باهراً واننا اصبحنا ذوي اشياع وانصار عديدين فارى الآن ان نظهر بالقوة والعظمة امام

الاعداء حتى يخافونا ويرهبوا سطوتنا ثم نحرّك يدنا من وراء ستار فنخنق كل صوت يكاد يعلو ونقتل كل عاطفة تريد ان تتحمس . ولنبدأ كما قال الخواجه نمروذ بالسعي في رفت مصطفى كامل من مدرسة الحقوق انتقاماً منه وارهاباً لغيره ولننشر في جريدتنا . . . . والجرائد المحازبة لنا عبارات التخويف والتهويل ثم اني ساجتهد لدى اولي الشأن في ترقية بعض اصدقائه ترغيباً لسلوك غيرهم مسلكهم واتحادهم معنا مثلهم

(مقار) نعم الرأي

(نمروذ) هذا علاوة على مساعينا في جلب قلوب الناشئة الينا

(فيكتور) نعم . نعم .

ثم وقف فيكتور على قدميه فوقف المعلم مقار وصيرفي ونمروذ لوقوفهِ وتحول هو الى آلة التليفون وظلوا هم واقفين وبعد قليل عاد اليهم وقال قضي الامر وغداً ترون مصطفى يكاد يختنق من التضييق عليه في المدرسة وبعض اوامر اخرى شديدة على سائر الطلبة

ثم استأذنوا بالانصراف وخرجوا

٢٩

استمر مصطفى على القاء دروس التعليم لعزيزة فكان يذهب اليها كل مساء ساعة او ساعتين وفي يوم الخميس يذهب بعد الغداء وفي يوم الجمعة يذهب في الصباح وفى المساء وكان شديد الميل جداً لتعليمها في اقرب وقت اصول الكتابة والقراءة كي تتمكن من المطالعة وتستطيع الفهم بدون معاونته ولم تكن هي أقل منه ميلاً الى ذلك فسهل عليها التعليم وأتمت في أسبوع ما لا يتيسر لغيرها أن تتمهُ في اشهر حتى صار مصطفى يترنم طرباً ويبتسم دائماً بهجة وسروراً

وفي اليوم التالي لاحتفاله بعيد جلوس الخديوي ذهب كعادته الى عزيزة فوجد معها في غرفتها صادقاً وابن عمها يوسف فلما دخل عليهم تبين له أنهم كانوا في محادثة هامة انقطعت لدخوله فلم يكترث ولم يبال بما رآه على وجهي الرجلين من الاستياء بل أخذ مجلسه بعد التحية وظل في مكانه يرمقهما من

طرف خفيّ ولما وجدهما لا ينصرفان ولا يكلمانه قال موجهاً كلامه الى يوسف افندي

ـ قصدت حانوتك مرة لاتمم معك حديثنا الماضي فلم أجدك وذهبت أول أمس لادعوك الى حفلة مطعم سانتي فلم أقابلك أيضاً

ـ علمت بذلك فيما بعد

(صادق) دعنا بالله يامصطفى من حديث سانتي وما سيجره علينا من الاضطهاد

(مصطفى) أي اضطهاد تعني ياصادق ؟ ألا تزال تنفر من هذه الحفلات المقدسة الواجب على كل وطني الاشتراك فيها

(صادق) ان وطن ووطني وبلد وبلدي وبلادي وكل هذه الالفاظ التي جعلتها تسبيحك وعبادتك سوف تؤدي بك الى ما لا ترضاه وتسيء اليك أعظم اساءة وربما تناولت غيرك من أصدقائك وخلاّنك بما لا تحبه فدع هذا بالله وأصغ الى نصائحي ولنكن جميعاً على الحياد .. أن للبلد يامصطفى حاكماً وأميراً وحكومة ووزراء لا نسمع لهم أنة ولا نراهم كارهين لما تكرهه . أنت يامصطفى بمدرسة الحقوق الخديوية فخليق بك

أن تعلم أن الوطن يحتله الاجنبي وما أدراك من هو وما قوته وعظمته وأن تعرف أيضاً أن هذا الاجنبي لا يحفل بنا ولا يكترث لمثلنا فنحن كالبعوضة فوق ظهر الفيل فهو لا يشعر بها أبداً

(مصطفى) ولكن البعوض باجتماعه على الفيل يقتله . وانا اريد جمع كلمتنا وتوحيد وجهتنا كي نتمكن من بلوغ غايتنا وهي الاستقلال . ان الحياة عدم في الاسر . والحرية اسر في الاحتلال . والاحتلال عار على الرجال . ونحن رجال لا يصح ان نرضى بالعار

وانا أعلم انك تخالفني دائماً في الرأي وأعرف انك لم تحضر حفلتنا ايضاً ولكنني اقول لك بكل حرية انك مخطئ وضعيف الرأي . اذا كنت لا تريد ان تتظاهر بالبغضاء للاحتلال فماذا يمنعك عن حضور الاحتفال بعيد جلوس امير البلاد ؟ ان كنت لا تحب الامير فانت خائن . وان كنت تحبه ولا تتظاهر بمحبته خوفاً وخشية فانت جبان

(صادق) انت تهينني يا مصطفى

(مصطفى)   ان كلامي هذا على فرض اتصافك بهذه الاوصاف القبيحة فان لم تكن موصوفاً بشيء منها فليست موجهة اليك وان كنت على شيء منها فلا يحق لك الغضب اذ لا اهانة في قول الحق

(صادق)   والغاية

(مصطفى)   ان تكون من اعضاء جمعيتنا

(صادق)   ان الجمعية ستسقط عما قريب وسترى بعينيك ما يحل باعضائها وما يلحقنا جميعنا معاشر الطلبة من الشدة والتضييق على حريتنا بسببك

(مصطفى) فهمت الآن ماذا تعني بكلامك هذا يا صادق وأرى ان ننتقل الى غرفة اخرى لنتحدث بحرية منفردين عن عزيزة

(يوسف)   نعم . هيا بنا

٣٠

ولما صاروا في الغرفة الثانية واخذوا مجالسهم قال يوسف

اعلم يا مصطفى انني اميل اليك وأحنُّ الى حديثك كثيراً
ولقد صدّقت كلامك عن خطائنا في قبول فيكتور واقتنعت
ببراهينك على ذلك ولكننا لا يمكننا الآن استرجاعها بل
يستحيل تنازله عنها فنحن لهذا السبب ترانا لا نحب اجتماعك
بها وكثرة ترددك عليها لعدم الفائدة من ذلك ولخوفنا من
توثيق عرى المحبة بين قلبيكما بدون جدوى ثم تتحملان
مرارتها وتذوقان حرارتها الى الابد . هذا من جهة عزيزة اما من
الجهة الاخرى فعلم الله انني على افكارك متعلق بمحبة عرش
اميرنا تعلقاً شديداً ولكنني ارى ان لا فائدة من الجهر بهذه
المحبة واعلان الكراهة للاحتلال لما أراه من قوته وضعفنا
وعدم امكان توحيد كلمتنا واتفاق قلوبنا . واعلم يا اخي انني لا
اجسر على اعلان رأيي هذا خارج هذه الجدران او داخلها على
مسمع من غيرك ابداً وهكذا كل اخواننا وباقي مواطنينا
فارح نفسك من هذا العناء الشديد واتق الله في مستقبلك

(صادق) خصوصاً وقد دار ذكر اسمك في الدوائر العالية
وتحدث الناس بشأنك كثيراً واجمع اكثرهم على تخطئتك وخاف

الجميع عليك ولا أكتمك أني سمعت من ثقة انهم قرروا نهائياً اضطهادك بكل وسيلة

(مصطفى) حبذا لو يفعلون يا اخي . أنهم يخدمونني بهذا الاضطهاد أجل خدمة . أنهم يضيفون الى براهيني على سوء نيتهم نحونا برهاناً جديداً

وبينما هم في هذا الحديث اذ دخل عليهم المعلم ابراهيم وغالب والمعلم سالم فسلم بعضهم على بعض وهنأ يوسف سالماً بالرتبة الثانية التي نالها أخيراً من لدن الحضرة الخديوية الكريمة وهنأه كذلك صادق فرد عليهما التحية ولكن مصطفى لم يقل له كلمة ولاحظ الجميع عليه ذلك فقال له غالب

(غالب) ان سالماً بك جدير بهذا الالتفات السامي لما هو مشهور به من جليل الصفات ومكارم الاخلاق وحسن السجايا

(مصطفى) نعم . ولكن الانعامات لا تعطى على الصفات بل على الاعمال والخدم

(ابراهيم) اذاً أنت تنتقد سمو الامير

(مصطفى)   حاشاي أن اقصد ذلك

(غالب) ان عبارتك يفهم منها ذلك تماماً فلا تحاول الانكار

(مصطفى)   دعني بالله من هذه المغالطة الظاهرة والفلسفة الفارغة . أنني أحقر من ان أنتقد مولاي الامير ولكنني أعلن بحرية ضميري تحقير كل من يسعى الى نيل رتبة او نيشان . ان الرتبة او النيشان عند الاستحقاق شرف عظيم . ونيل احدهما بدون استحقاق وببذل الوسائط والمساعي حطة ودناءة انني عالم بالمساعي التي بذلت للحصول على الرتب والنياشين الاخيرة لبعض من لم يكونوا معروفين من قبل وليس لهم من يد على البلاد ولا احقية لهم في التحلي بشيء منها فدعوني بحقكم من هذا الحديث فان شرحه مؤلم ومسيء

(ابراهيم)   ما هذه الجرأة يا مصطفى ؟ ألا يعجبك منا احد ؟ انك سفهتنا كلنا وصغرت من شأننا جميعاً فقد علمت انك قلت لصادق انه جبان وخائن وضعيف الرأي واعتبرت الآن كلام غالب افندي مغالطة وفلسفة فارغة ويظهر عليك انك لا تحترم احداً منا وتحتقرنا جميعاً فما قولك في كلامي انا

اذا قلت لك بصريح العبارة اننا لا نريد ان تقابل عزيزة ولا نحب ان تعلمها ابداً

وكان مصطفى سريع الغضب للحق شديد الكره للباطل عظيم الوطأة على خصومه قريب الهياج . فلما سمع كلام ابراهيم وفهم قصده انقلب حلمه الى غضب وسكونه الى هياج وابتسامه الى عبوسة وبالجملة كأن مصطفى كامل الشاب الرقيق الجميل والفتى المهذب الحليم ترك مجلسه لرجل غيره عظيم جافي الطبع هائل المنظر غضوب لا يعرف الحلم ولا سمع به ابداً فقال بلهجة الآمر المستهين بمخاطبه

« تباً لمن لا يذعن للحق وسحقاً للمرائين . هل قول الحق جرأة وهل وصف الانسان غيره باوصافه سفاهة . اللهمّ انني اسألك بحقك ان كنت قد قضيت على هذا البلد القديم بالذل الى الابد وعلى هؤلاء التعساء بالجهل والمسكنة طول الامد ان تقبضني اليك وتكفيني شر هذا العناء وتريحني من النظر الى هذا البلاء . فقد خلقت لي قلباً عظيماً وفؤاداً كبيراً وشعوراً رقيقاً واحساساً عالياً فلا استطيع السكوت ولا

يمكنني البقاء

ماذا تقصدون بمنعي عنها و بعدها عني تالله انكم لا تستطيعون تنفيذ مآربكم الخبيثة ولا تقدرون على تحقيق مقاصدكم السيئة . هل عسيتم ان أمكنكم التفريق بين الجسدين أن تقطعوا صلة القلبين ؟ ألا بعداً لكم أنكم واهمون . قد بنيتم في الهواء وأسستم فوق الماء . فقد مضى الزمن الذي تتحكمون فيه على ارادة المرأة تحكماً ظالماً . فماذا تفعلون ان قاومتكم الفتاة ولم ترض بحكمكم ؟ ألا فاعلموا أنني لا أفارق عزيزة ولا أتحول عن محبتها ولو تحولت الاهرام عن مكانها المكين وتزحزحت عن موضعها . فانظروا ماذا تفعلون ؟ »

وهنا ازداد غضب مصطفى وعظم هياجه فأخذ يحتج وينفعل وهم يسمعون صامتين ينظرون لبعضهم بعضاً ولا يجسر أحدهم أن يجيب أو يبدي أو يعيد حتى سكن اضطراب مصطفى وهدأ خاطره فقام الى غرفة عزيزة فوجدها باكية . ولما سألها عن السبب قالت انني انصت لحديثكم وسمعت كل شيء . فجلس بجانبها يهدئ روعها ويطيب خاطرها

٣١

كان مصطفى كامل بمدرسة الحقوق طالباً نبيهاً وعاملاً مجتهداً محبوباً وكان المرحوم على مبارك باشا يحبه محبة عظيمة ويعطف عليه إعجاباً وسروراً حتى أنه أمر أن يكون له مرتب شهري تنشيطا وتشجيعاً فتقيد اسمه بكشف المعلمين. وعمل له خاتماً يختم به على استلام المرتب وهو أول عهده بالاختتام . ولما أصدر مجلته (المدرسة) أصدر الباشا أمره باشتراك نظارة المعارف فيها بخمسين نسخة حباً في مساعدة صاحبها الشاب الزكي الذي كان يميل اليه ميلاً غريباً ويعتقد انه سيكون عظيماً وقد قال له « انك امرؤ القيس وستكون يامصطفى عظيماً »

ولكن حدث ان انتقلت نظارة المعارف العمومية من المرحوم مبارك باشا

وكان مصطفى يزداد تحمساً وصوته يعظم علواً وحبه لوطنه يكبر وعشقه لبلاده يتقوى وغرامه في التعلق بعرش الامير الكريم يتجسم وهيامه بدار الخلافة العظمى يتمثل فأخذت نار

عداوة اضداده وحساده تضطرم وأبتدات ايديهم تلقي العثرات في طريقه والمساعي الخبيثة في سبيله حتى كانت حفلة مطعم سانتي وخطبته التي انتقد فيها حالة الحكومة ودعا المصريين الى مطالبة الانكليز بالجلاء عن بلادهم قياماً بوعدهم . وكان في جملة الحاضرين ناظر مدرسته فاستدعاه في الغد وعاتبه على تصريحه فقال له « انني مصري ولي الحق ان ابحث في شؤون مصر » وشدد لهجته فرفع الناظر امره الى النظارة وطلب اليها منع الطلبة من الاشتغال بالسياسة وهو محرم عليهم اشتغالهم بها .

وسعى وكيل فيكتور من جهة اخرى ومشي نمروذ بالسوء ايضاً وجرى المعلم صيرفي للوقيعة به كذلك وساعدهم من اهل عزيزه واخوانهم المعلم ابراهيم وصادق وسالم بك والشيخ عبيد وغيرهم ممن لم يرق في أعينهم ارتفاع واحد منهم عليهم غباوة وجهلاً وحسداً

فكانت نتيجة هذه المساعي الفاسدة اصدار نظارة المعارف العمومية منشوراً عاماً لجميع المدارس يحرم على الطلبة

اشتغالهم بالعموميات جملة والسياسة خاصة كما اخبر فيكتور وأوعز الى نظار المدارس بالتشديد على التلاميذ ومعاقبة من يخالف نص المنشور بعقوبات شديدة وحرمانهم من الدراسة أياماً معدودة او الى الابد كما يتراءى لهم

فرأى الطلبة شدة هذا المنشور وعظيم خطارته عليهم وأحدث بينهم هرجاً ومرجاً وتحقق مصطفى كامل أنه المقصود بالذات من هذا المنشور

ولما كان لا يمكن أن يرجع عن خطته أو يحول عن عزمه او يتقهقر فيما رسمه لنفسه من السير الى الامام في طريق الاستقلال وانقاذ البلاد من قبضة الاحتلال . وانه لا يمكنه أبطال مساعيه في تخليص عزيزة من فيكتور وهذا لا يسكت عنه طالما هو يسعى سعيه هذا . وقد رأى تغييراً كبيراً في معاملة المدرسة له ولاحظ غض أنظار الاساتذة عنه وشعر بشبه قسوة من القائمين بأمر النظام المدرسي فعوّل على ترك هذه المدرسة وعزم أخيراً عزمه الاكيد على ذلك فقصد وكيل المدرسة وشافهه بهذا العزم وأدخل في حديثه بعض العتاب والتبكيت

على ما اظهره له من بوادر الاضطهاد ثم تأثر سريعاً وانفعلت نفسه حالاً كما هي عادته دائماً فتكلم كلاماً شديداً وقال انني عالي النفس لا اطيق التضييق ولا ارتضي الذل - ولقد تحقق لي أنني المقصود بمنشور النظارة الاخير وشعرت بما بدأتم في تنفيذه معي من الاضطهاد فانا لا اقبل هذه المعاملة مطلقا ويتحتم على مثلي ترك هذه المدرسة التي اصبحت مرسحاً سياسياً وسترى انني أموت حائزاً على لقب باشا ويبقى مثلك بعدي كما هو من احد البكاوات . ثم ترك المدرسة متكلاً على وجوده بمدرسة الحقوق الفرنساوية وأنه سينال شهادتها عما قريب

٣٢

قال مصطفى كامل ذلك القول واخاف الرجال ذلك الخوف واقلق بالهم ذلك القلق وهو شاب لم يتجاوز التاسعة عشرة من عمره . فرحمه الله كم كان عظيماً في صغره وكبره

ولما ترك مدرسة الحقوق الخديوية أعجب العقلاء بشهامته وشممه وعزة نفسه وايثاره تضحية مستقبله على الرجوع عن

خدمة وطنه

ومن ذلك العهد وبعد ظهور كتابه « المسئلة الشرقية » ذاع ذكره بين جميع الطبقات ودوى في انحاء القطر كلها ووصل شيء منهُ الى بعض الجهات الغربية والاقطار الاسلامية فعرف الناس ان هناك شاباً اولع بحب وطنه وعشق عرش مليكه وهام بدولته وجهر بغرام الاستقلال والحرية واقسم بهم جميعاً وهم لو تعلمون اعزّ شي لديه ان لا يرجع ولا يرعوي حتى يحقق اماله. وكان قبل ذلك غير معروف الا من مقالاته الرنانة التي كانت الاهرام والمؤيد وبعض الجرائد الاوروبية تنشرها بامضائه . ومن ذلك العهد ايضاً وبعد حضور المرحوم السيد عبدالله نديم الى مصر في سنة ١٨٩٢ وسماعه بمصطفى كامل وتقريبه له منهُ واقتباس مصطفى لاساليبه وحفظه لنصائحه ومبادئه ظهر ظهوراً عظيما وازداد قوة ونشاطا

وكان لا يفتر ايضا عن تعليم عزيزة حتى اصبحت قادرة على القراءة والكتابة بكل سهولة وتعلمت بعض العلوم العالية وصارت تساعده كثيراً في اشغاله الكتابية

وعرف يوسف افندي ابن عمها وصالح ابن اخيه وغيرهما من اهلها فضله ومقدرته فالتفوا حوله وعاهدوه على مؤازرته والسعي معهُ لتخليص عزيزة من خطبة فيكتور فكان سروره عظيماً . وحدث في اثناء هذه النهضة وبعد الاحتفال بعيد الخديوي وتقريب المعية السنية لمصطفى ورضى الجناب العالي عنهُ ان جاء مصر المسيو دلونكل الفرنساوي الذي كان يتظاهر بحب المصريين والغيرة عليهم فاجتمع بمصطفى كامل وتعرَّف به فاعجب بفصاحته وذكائه وطلاقة لسانه في الخطابة وقوة تأثيره على سامعيه فرغبه في السفر الى فرنسا للتبحر في الحقوق والتعمق في غيرها من انواع المعارف والتجارب اللازمة لمثله . وكان مصطفى شديد العزم قوي الارادة فصمم على السفر وفعلاً شخص الى باريس في آخر سنة ١٨٩٣ واستمر هناك يتعرف بكبار الصحافيين وعظماء السياسيين وهم معجبون بهمته مندهشون من جرأته وقوة جنانه وهو معجب بحريتهم وموافقتهم له على انتقاد الانكليز

ولما كان يوم ٨ يناير سنة ١٨٩٤ احتفل هناك ايضاً بعيد

الجلوس الخديوي احتفالاً فخماً شهده اكثر المقيمين في باريس من المصريين وحضره اغلب التلامذة المرسلين لتلقي العلوم على نفقة الحكومة المصرية فالقى مصطفى عليهم خطاباً استنهضهم فيه على الثبات في طلب جلاء الاحتلال عن مصر فوافقوه واتفقوا على الاستنجاد بفرنسا في ذلك الطلب على ان تكون حجتهم وعد انكلترا الذي وعدت به في بدء الاحتلال

وعلمت نظارة المعارف المصرية بذلك فاظهرت نفس الاضطهاد الذي اظهرته عقب الاحتفال الاول في مطعم سانتي بالازبكية سنة ١٨٩٣ بان أخرجت كل التلامذة الذين اشتركوا في ذلك العمل من عداد الارسالية

٣٣

ولا يغرب عن ذهن القارئ الكريم ما كان في قلب عزيزة من اللوعة والهم يوم كاشفها حبيبها بعزمه على السفر الى باريس . تلك الملاك الطاهر التي لم تعتد فراقه ولم تألف بعاده وكان وجوده بجانبها تسليتها العظمى على همومها واكدارها

قضت الهائمة بحبه اياماً وليالي قبل رحيله لا يهدأ لها بال ولا تجف لها دمعة ولا تأخذها سنة الكرى . وكان هو يسليها ويلومها على بكائها ويشجعها بذكر ماسيناله في هذا السفر من الرفعة والجاه وما يؤمله من بلوغ الآمال مما يساعده على مزاحمة فيكتور في اسمه وشهرته ويكسبه حب اهلها له ونفورهم من فيكتور فيتمكن اذ ذاك من قهره والغلبة عليه وتخليصها من يده . فكان روعها يهدأ قليلاً لهذه الاماني الكبيرة والآمال العالية العظيمة

وكان يوم الفراق يوماً مشهوداً وساعة الوداع هائلة شديدة وقد اقلعت به الباخرة وعزيزة مع المشيعين ترطب الثرى بمدامعها وتسقي ورد خديها بماء جفونها

وقضت ايام البعاد على مثل جمر الغضا ونار لوعتها تشوي فؤادها وتحرق مهجتها ولم يكن يسليها غير خطاباته المتتابعة عليها وردودها عليها فكانت تجلس الى مكتبتها طول الليل تحرر له تلك الردود وتبثهُ اشواقها ولوعتها على فراقه وما تقاسيه من مرارة العيش في بعاده

وكانت تقرأ جرائد مصر العربية والافرنجية وتطلع منها على اعمال حبيبها وما كان يلقيه على الباريسيين وغيرهم هناك من الخطب والمقالات وتقف منها على اعجاب القوم به واطرائهم له فتزداد تعلقاً به ويعظم فرحها وابتهاجها بعظمتهِ ومجده

وكان لقراءتها في الجرائد عن نيله شهادة الحقوق من طولوز في فرنسا وفوزه في الامتحان وتقدمه تقدماً باهراً على كثير من اقرانه رنة فرح عظيم في فؤادها وارسلت اليه من فورها تهنئتها على لسان البرق فكان لها في نفس مصطفى اعظم وقع وارسل اليها رداً جميلاً

واقام مصطفى في فرنسا امداً غير قصير ثم عاد الى مصر في اوائل سنة ١٨٩٥

فكان الخطاب الذي ارسله الى عزيزة يخبرها فيه بعزمه على العودة أحسن خطاب تلقتهُ والبشرى التي جاء بها أعظم بشرى فكأنما كانت بشرى يعقوب برجوع يوسف اذهبت همومها وأزالت اكدارها

وكان يوم وصوله أسعد ايامها وساعة رؤيته أطيب ساعاتها

ولا نطيل وصف هذا اللقاء فالعاشق يعرف تأثيره وما يحدثه في قلب العشاق وما يحصل حينئذ في افئدة المحبين

وكان الجمع الذي استقبل مصطفى عظيماً من اقرأنه واحبابه والمعجبين به وبعض اضداده وحساده الذين راجعوا أنفسهم وعلموا أنهم كانوا على ضلال مبين

وكان مع الجمع يوسف افندي وصالح والمعلم ابراهيم فصافحوا مصطفى مع المصافحين ورحبوا به وهللوا لقدومه

وكان على بعد بضعة امتار من أسكلة الباخرة القادم عليها مصطفى كامل اذ ذاك رجلان يكاد كلاهما يتمزق صدره غيظاً ويختنق كيداً وحنقاً فلما وصلت الباخرة وشاهدا احتفاء القوم بالقادم وترحيبهم به ضاقت الارض في وجهيهما واسودت الدنيا في اعينهما ووليا يلعنان ويطفران ويكفران وذهبا تواً الى منزل وكيل فيكتور واذ رآهما قال من فوره ما الذي رأيته يا معلم صير في

قال « رأينا حسرة وشؤماً . يخبرك نمروذ . تكلم يا اخي » وكان بجانب الوكيل رجل جالس يتأوّه ويتألم فلما رأى نمروذ لا يجيب ضاق ذرعاً وقال له « تكلم يا نمروذ . قل

ماذا رأيتما » فقال نمروذ « ماذا أقول يا صفوت ان الذين قابلوا مصطفى كامل يفوق عددهم عن عدد الذين قابلوا جميع ركاب الباخرة ولم يكن أهله وأقاربه فقط بل غيرهم كثيرون منهم يوسف وصالح وابراهيم . واظن ان صادقاً لم يفلح في تخويف الطلبة وأرهابهم كما اوعزنا اليه فقد رأيت منهم هنالك كثيرين »

قال الوكيل انني لا اظن هذا الشاب جدير باهتمامنا هذا فاتركونا الآن من شأنه وسأنظر في امره فيما بعد

ثم خاضوا في احاديث مختلفة ودبروا مكائد جهنمية ودسائس خبيثة ثم انفرط عقد اجتماعهم وانفضوا كل الى منزله

٣٤

قالت عزيزة لمصطفى انني اتقنت اللغة الفرنساوية في غيابك على قاعدة تعليمك وكنت اطالع جرائد باريس واسر مما كان ينشر فيها من اخبارك

فقال ان باريس جميلة المنظر ولكنها لم تحوّل قلبي عن حبك يا عزيزة فان ذكركِ كان فيها انيسي والافتكار بك

ملازمي وجليسي فما حضرت حفلة او مجتمعاً الا تمثلتكِ امامي ولا تكلمت او خطبت الا واسمك اول كلامي وآخر خطابي وبالجملة فانت محور جهادي واجتهادي وسبب جهدي وجدي واسفاري واغترابي . ان الكتاب الذي اعطيتكِ اياه قبل ان اعلمكِ القراءة والكتابة يشتمل على خطتي هذه كلها وسوف ترين انني رسمتها ولن احيد عنها أبداً ولسوف تعلمين انني سأتمكن من تحقيق آمالي واخلصك من يد فيكتور كما سجلت على نفسي بيدي في ذلك الكتاب فاحفظيه عليّ وطالبيني بالقيام بما فيهِ اذا توانيت لا قدّر الله . وسأعود الى باريس عما قريب وتسمعين يومئذٍ ما افعله

فقاطعته عزيزة قائلة « أتسافر ايضاً ؟؟ »

(مصطفى) نعم يا عزيزة ولمَ هذا الجزع

(عزيزة) انا لست بجازعة ولكن الفراق شديد والبعاد مرّ المذاق وقد كابدت فيها من العذاب اشكالاً والواناً

(مصطفى) عليكِ بالصبر يا عزيزتي وكأنني بكِ خائفة منهم . ألا فاعلمي ان يوسف وصالحاً وابراهيم وكثيرين من

اهلك واصدقائهم اصبحوا من انصاري وقد عاهدوني امس على الولاء والسهر عليكِ واقسموا انهم يدعون رؤوسهم تذهب عن ابدانهم قبل إن تكوني لفيكتور . ولذلك تريني الآن مسروراً مرتاح الضمير لاني اعلم ان فيكتور أضعف من ان يمتلك مثلكِ وحيداً وانما هو بانصاره من اهلك قوي عنيد . نعم ان له انصاراً عديدين من غير اهلكِ وقليلين منهم ولكنهم جميعاً مدهوشون من امواله ثم لا يلبثون ان يروا الحق فيتفرقوا من حوله فان الحق احق بالاتباع وكان الباطل زهوقاً

* * *

اشتغل مصطفى افندي كامل بالمحاماة بعد رجوعه من باريس حاملاً شهادته النهائية في الحقوق فقضى فيها اشهراً ثم رآها اضيق من ان تسع مطامعه التي اصبحت سارية في جسمه مع دمائه فعزم على ترك المحاماة ولم يكفه ما كان ينشره في الجرائد من المقالات الوطنية الحماسية فصمم على الخطابة في المنتديات والمحافل فالقى اول خطبة له في مدينة الاسكندرية وتناقلتها الصحف فرأى الناس فيها من شدة اللهجة على الاحتلال

وطالب الجلاء ما لم يعهدوه من قبل ولا يظنون أحداً يجسر على قوله فأعجبوا بالشاب وشاركوه في احساسه وشاطروه شعوره واطروه وشجعوه فعظم ميله الى الخطابة والصحافة ولذّ له الفوز فوطن نفسه على الاستماتة في طلب الجلاء

ولما كان يعلم انه ضعيف بنفسه وليس له أنصار عديدون وانه يعجز عن القيام بهذه المأمورية العظيمة بأهله واحبائه رأى ان يستعين بفرنسا وشجعه على ذلك ما لاقاه في رحلته الاولى من احتفاء الفرنساويين به وتأمينهم على طلبه للجلاء .

فترك صناعته فعلاً وانقطع للجهاد ثم سافر الى باريس كما أخبر عزيزة ورفع باسمه الى مجلس النواب الفرنساوي في ٤ يونيو سنة ١٨٩٥ رسماً كبيراً يمثل مصر والاحتلال الانكليزي بشكل يدل على توسل المصريين الى فرنسا أن تساعدهم كما ساعدت اليونان والاميركان والبلجيكيين والايطاليين في نيل حريتهم . ورمز الى مصر العزيزة بغادة فقيرة عارية من كل ملابسها الا ما يستر عورتها مكبلة بسلاسل الاسر واغلال الظلم والاستعباد . والاسد البريطاني قابض على هذه القيود

وبجانبه رجل هائل الصورة قابض على سيفه محدقاً ببصر تحديقاً شديداً كأنه يريد أن يبتلعها بفمه . وذلك مثال القابضين على أمور البلاد المصرية بالقهر والقوّة . وعلى يسار تلك الصورة الهائلة ترى النيل قد مُثّل بشيخ من شيوخ الاعصر الخالية متكئ على اناء تتفجر منه عيون النيل . ومن رقيق المعاني أن ذلك الرجل الهائل ضارب باحدى رجليه في النيل رمزاً الى معنى الاحتلال . وقد وضع في أسفل اللوحة هذه الابيات باللغتين العربية والفرنساوية

أفرنسا يامن رفعت البلايا عن شعوب تهزها ذكراك
أبصري مصر أن مصر بسوء واحفظي النيل من مهاوي الهلاك
وانشري في الورى الحقائق حتى تجتنى الخير أمة تهواك

وهذه صورة الكتاب الذي رفعه الى مجلس النواب وهو شاب لم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره لا حول له ولا قوة ولا مالاً الا اصغريه وقوة جنانه وكانت الشيوخ من الحكام والامراء تخشى ان ترفع اصواتها بمثل ذلك ولكنه كان قد أخذ على نفسه امام حبيبته عزيزة موثقاً لن يخلفه

يا حضرة الرئيس

اني بأشد انفعال يخالج القلب تأثيره اتشرف بأن اقدم لمجلس النواب الذي انت له نعم الرئيس هذه اللوحة التى تمثل مصر طالباً من فرنسا ان تكون لها خير عضد يساعدها على استرجاع حريتها واستقلالها. وان هذه اللوحة تمثل لدى مجلس النوّاب حالة أمة ناشئة غيورة على حريتها المسلوبة بغير حق منذ ثلاثة عشر عاماً . ولقد برهنت الامـة المصرية يا حضرة الرئيس مع ما يعتورها من المصائب الشديدة عن سكينة وصبر عجيبين استمالت بهما قلوب الامم الاوروبية ولكن لما اعتراها النصب جاءت مستغيثة بفرنسا . هذه الدولة العظيمـة التي أعلنت حقوق الانسان والتي سارت من منذ قرن في سبيل التقدم والمدنية

جاءت الامة المصرية تستغيث بهذه الامة الكريمة التي حررت عدة من الامم . فهل تجاب في استغاثتها وتضرعها ؛ وهل لفرنسا ان تؤيد بهذا العمل الجليل مكانتها في العالم الاسلامي الواثق بها

على ان ذكر اسم مصر عندما تكون حرة مستقلة بجانب اسماء الامم العديدة التى حررتها فرنسا ليس بالفخار القليل لها فلتحي فرنسا محررة الامم

٣٥

ولم يكن كدر فيكتور وغيظه بأعظم من كيد أنصاره وأشياعه فقد احدث لهم هذا الكتاب وتقديم ذاك الرسم قلقاً واي قلق فتوالت اجتماعاتهم وكثرت مفاوضاتهم وتعددت ابحاثهم وهرجت محافلهم وماجت مجالسهم واكثروا من المشورة والاخذ والرد وكان اشد الجميع هماً وغماً الوكيل والخواجه نمروذ والمعلم صيرفي وسالم بك وصفوت

واخذت الجرائد الاحتلالية تطعن على مصطفى وتسفه مسعاه وتنذره وانصاره بالويل . وسعى الساعون بالباطل فاوهموا البسطاء وأرهبوا الضعفاء واخافوا الجهلاء وبالجملة اخذ هذا الكتاب دوراً عظيماً ودوي صوت حادثته دوياً هائلاً في جميع الاقطار وتناقلته الصحف واتت التلغرافات العمومية على

مغزاه وتحركت له الفحول وقام له السواس العظماء وقعدوا . غير أنه لم يأت بالنتيجة المأمولة من فرنسا ولكن الفرنساويين رحبوا بالخطيب المصري الشاب وتقاطر اليه مراسلو الصحف ومكاتبو الجرائد يحادثونه وينشرون آراءه في جرائدهم وتسابق القوم يدعونه للخطابة في انديتهم ومحافلهم فكان يخطب بالفرنساوية الفصحى كأحسن خطيب افرنسي وكل كلامه يرمى الى الغرض عينه

وأول خطبة سياسية ألقاها في محفل عام باوربا خطبتهُ العظيمة في ٤ يوليو ١٨٩٥ بمدينة طولوز وهي المدينة التي نال فيها شهادة الحقوق فكان لها دوي هائل في الانحاء ونبهت الجرائد عليها وترجمتها الصحف المصرية ومن ثم عرفت أوربا مصطفى افندي كامل الخطيب المصري الوحيد الذي اوقف حياته على الدفاع عن وطنه والذود عن حقوقه وجهر بكل جرأة أنه يطالب عن المصريين عموماً تلك الدولة المتمدنة برد حقوقهم المسلوبة

فصدّر خطابته هذه بتاريخ الاحتلال وعهوده وفصل احوال النظارات المصرية وسيطرة الانجليز فيها واستئثارهم

بالنفوذ والوظائف واحتقارهم الاهالي وبرهن على ان وجود الاحتلال البريطاني بالقطر المصري يخالف كل المعاهدات الدولية واخراجهم منه يوافق صوالح جميع الدول الاوربية

وكان المصريون قد شعروا بما يعود عليهم من جهاد هذا الشاب الغيور من الفوائد والحرية فلم يعترضوا على اقواله ولم يحتجوا على تصريحاته الا بعض الاذناب وكثير من الاجانب ولكنهُ لم يكترث لهم ولا عاقه كيدهم

وكانت عزيزة ومحبو مصطفى يوجسون عليه خيفة ويتقدمون اليه ان يقلل من حملته ويخفف من شدته فما كانوا يلقون منهُ الا نفوراً وكان تحذيرهم له وتخويفهم اياه وسعيهم لديه لا يزيده الا قوة على قوة وحباً في زيادة الجهاد فوق حبه فصار من ذلك الحين ينتقل من مجمع الى غيره ويخطب بين جماعة ثم بين آخرين على اختلاف الاجناس فتارة بالعربية وتارةً بالافرنسية واخذ من ذلك الوقت يكاتب الكبراء والعظماء ويستلفت الدول الى احوال مصر ويستنهض الهمم الى انقاذ المصريين وكانت اخباره في الجرائد تصل الى عزيزة وتقرأ

تفصيلها من كتبه العديدة التي ترد عليها منهُ دون انقطاع فتسرّ وتبتهج فرحاً

وكان حب مصطفى لدولتنا العلية مماثلاً حبه لمصر وعشقه للعرش الحميدي مشابهاً لعشقه للاريكة العباسية وميله الى المسلمين خصوصاً والشرقيين عموماً مساوياً لميله الى المصريين بالتمام فكانت خطبه تتناول الدفاع عن العموم وطلب الجلاء عن مصر على الخصوص

ولما كانت ظروف الازمة الارمنية واشتداد هياج الامة الانكليزية على دولتنا العلية الذي كان ناتجاً عن اقوال المستر غلادستون شيخ الاحرار رأى مصطفى ان يكتب اليه يسأله رأيه في المسألة المصرية التي هي احق بعنايته من المسألة الارمنية وان المصريين اولى بالشفقة من الارمن وخصوصاً من نفس الدولة التي تدّعي الانتصار للانسانية فكتب من باريس في ٢ يناير سنة ١٨٩٦ يقول

ايها السيد المبجل

أسمحوا لاحد ابناء وادي النيل . الوطني لا امنية له الا

تحرير بلاده ان يقصدكم اليوم ليسالكم رايكم عن حل مسألة مصر

فلقد كنتم مذ احتلت انجلترا وطننا اشد نصراء الجلاء وجاهرتم مراراً عديدة باعلا صوتكم انه لا يليق ببريطانيا العظمى ان تحتل مصر الى اجل غير محدود فان هذا يمس بشرفها اشد المساس

واننا سجلنا كل تصريحاتكم وحفظنا مجاهراتكم ولو انكم لم تستطيعوا الوفاء بوعودكم عندما كانت السلطة في يدكم لاسباب نجهلها بالكلية فاننا لا نزال نظن اعتقادكم الآن كاعتقادكم في سالف الزمن أي انه ليس لمسئلة مصر الا حل واحد وهو الجلاء

ولهذا رأيت من المفيد ان ارجوكم في هذا الوقت الذي اضطربت فيه احوال المسألة الشرقيــة ان تعرفونا عن حقيقة احساسكم نحو حظنا

فان كنتم لا تزالون من نصراء الجلاء كما نفتكر ذلك فمتى تظنون انه يمكن تحقيق هذا الجلاء المنتظر من عهد بعيد ؟

وفضلاً عن ذلك فان تصريحاً منكم بشان مسألة مصر

يكون لهُ اعظم اهمية في هذه الايام التي يحسب فيها الجم الغفير من ابناء ديننا المسلمين انكم اكبر عدو رآه الاسلام

واني مع انتظار الجواب على كتابي هذا ارجوكم ايها السيد المبجل ان تتفضلوا بقبول عظيم احترامي

(مصطفى كامل)

٣٦

ارسل مصطفى كامل ذلك الكتاب الى اعظم سواس بريطانيا ورجاه ان يردّ عليه وكان امله كبيراً بوصول الرد في اقرب وقت لانه كان شديد الثقة بنفسه عالي الهمة كبير القلب عظيم الجرأة . وقد تم ما أمله فان المستر غلادستون اجابه بقوله

سيدي العزيز

انني استحسن ما فهمته من احساساتكم نحو بلادكم بصفة كونكم مصرياً ولكنني مجرد بالمرة عن كل سلطة

اما آرائي فانها لم تتغير قط وهي دائماً انه يجب علينا ان

تترك مصر بعد ان تتم فيها بكل شرف وفي فائدة مصر نفسها العمل الذى من اجله دخلناها « وان زمن الجلاء على ما اعلم قد وافى منذ سنين » ... ولما كنت في منصبي اخيراً املت مساعدة الحكومات الاخرى توصلاً الى تسوية هذه المسألة المهمة والسلوك الذي اتبعه مسيو وادنجتون في سنة ١٨٩٢ شجع أملي غير ان المخابرات لم تخطُ خطوة واحدة مع عظيم ما أملنا اذ ذاك ولست ادري لاي سبب

ولقد جاهرت بكل تصريحاتي في مجلس النواب سنة ١٨٩٣ ولم يبقَ عندي شيء اضيفهُ عليها . ولكن كنت مستعدًا لعمل كل حسن في سبيل اعطاء آرائي تأثيراً . الا انني تركت المنصب بالمرة ولست الآن الا أحد أبناء بلادي الخصوصيين

واني أتشرف بأن اكون منك الخاضع الصادق

« و . غلادستون »

ولا حاجة لبيان أهمية ذاك الخطاب وهذا الجواب وما حدث بسببهما من الهياج . فقد اشتغلت بهما الجرائد كلها في اكثر أنحاء العالم على اختلاف لغاتها وممالكها ومبادئها

وسياساتها فعلقت الشروح الضافية وأبدت الآراء المختلفة وظلت تكتب ردحاً من الزمن . وكان وكيل فيكتور وأشياعه يزدادون كمداً ويتولاهم الهم والكدر . وكانت عزيزة وابن عمها يوسف افندي وصالح و بعض أهلها الذين مالؤا حبيبها وعاهدوه على الولاء يزدادون محبة له وتعظيماً لقدره . واتفق فريق منهم على رفع التهاني اليه بفوزه ونجاحه وأرسلت عزيزة رسالة مسهبة في ذلك

وكان مصطفى لا يقطع عن عزيزة مراسلاته الغرامية وكتبه الودادية فيبثها شوقه بأجمل الالفاظ وأبلغ المعاني وافصح الكلام ولا غرو فهو الاديب الاريب والكاتب النحرير فكانت رسائله سلوتها وتلاوتها شغلها الشاغل

ولما عاد من باريس في فبراير سنة ١٨٩٦ كان ليوم وصوله شأن عظيم احتفل به الوطنيون احتفالاً شائقاً وقابلوه مقابلة العظماء والكبراء من فحول السياسة أو الوزراء الفخام اوالامراء أو الملوك

ولا يجهل اللبيب مقدار فرح عزيزة وابتهاجها كما لا يعزب عن فهم الزكي مبلغ همّ فيكتور و وكيله

واشتهر فيكتور بالاحسان وحب الانسانية والحرية فكان لا يقدر على معاداة مصطفى خوفا من تكذيب الناس له فيما يدعيه . ولكنه يخشاه ويخافه . فكان يدبر المكائد وينصب الحبائل على يد وكيله وبمساعدته وهذا ينفذها من وراء ستار لاطفاء هذه الجذوة المضطرمة واخماد هذه النار المشتعلة واسكات هذا الصوت العالي وتكسير هذه القوة الهائلة والهمة الشماء والعزيمة الفائقة

في ١٠ مارس سنة ١٨٩٦ تكلم وكيل فيكتور في التليفون مع نمروذ وقال لهُ احضر الليلة فاجاب بالطاعة

ولما كان الليل ذهب ومعهُ المعلم صيرفي وأحد أقاربه الى محل وكيل فيكتور فوجدوا عنده صادقا والشيخ عبيداً وسالماً بك وصفوت باشا وبينهما اثنان لم يعرفوهما خرجا عند دخولهم فاخذوا مجالسهم بعد التحية ثم دار الحديث

(الوكيل) اسمعوا نص هذه الرسالة التي وصلتني اليوم ومن أجلها أرسلت في طلبكم

(بعد الديباجة) — أخبر جنابكم أن على افندي فهمي .

الضابط بالاورطة الاولى البيادة وشقيق (مصطفى كامل) قدم بطريق السيكورتاه في ٨ مارس سنة ١٨٩٦ الجاري استقالته من الخدمة الامضا

فما رأيكم ؟

(سالم) عجيب وماذا يقصد ياترى ؟

(عبيد) رأى ما ناله أخوه مصطفى من الشهرة فمالت نفسه الى مشاركته طمعاً في نيلها

(صادق) ان الوكيل يريد أخذ رأينا في الانتفاع من هذه الحادثة فماذا تشيرون به ؟

(نمروذ) أرى أن لا تقبل استقالته فيخرج بسلام بل ندبر له تهمة تؤدي به الى مجلس التأديب فيخرج محكوماً عليه ونكون قد أرهبنا أخاه مصطفى وقضينا على آمال الآخر ان كان غرضه بالاستقالة مشاركة أخيه ضدنا

(صيرفي) نعم الرأي

(الوكيل) ولكنني رأيت ما هو أشد وأرهب فاصغ ياصفوت باشا لانني أريدمنك أن تقوم باتمام هذا العمل والسعي

في أنجازه .. تعلمون أن المخابرات الآن متبادلة بين التعايشي أمير الدراويش بالسودان والحكومة المصرية ولا تلبث الحرب ان تقوم بين الطرفين . فارى ان نوعز الى الحربية ان تتخذ هذه الاستقالة وسيلة لمعاقبته عقاباً شديداً بحجة أنه قدمها بعد اعلان الحرب

(صفوت) ولكن الحرب لم تعلن بعد

(الوكيل) وهل في قدرة احد الاعتراض على أقوالنا أو انتقاد أعمالنا . فافعل ما تؤمر

(صفوت) ساقوم بما أمرت فكن مطمئناً

* * *

واعلنت نظارة الحربية المصرية معاقبة الضابط علي افندي فهمي بتجريده من رتبته وتنزيله من ضابط الى (جندي) نفر بسيط

ولكن خاب فأل القوم فقد ازداد مصطفى كامل قوة وقوي املا وعظم فخراً وقام في ١٣ ابريل من السنة نفسها (١٨٩٦) خطيباً في تياترو زيزينيا على جمهور من افاضل واعيان

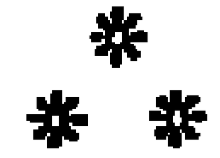
الاوربيين فألقى خطبة كانت من اعظم واسمى ما قاله وكان وقعها في نفوسهم شديداً. قال في اثناءها « .... ولقد كان اولئك الذين يدعون الدفاع عن الاحتلال الانكليزي يزعمون انهم اوقفوني الى الابد اذ يظنون بسذاجة لا مثيل لها ان الاجحاف الذي لحق اخيراً باحد اخوتي يضعف قواي او يوهن عزيمتي او يقلل مجاهدتي في سبيل سعادة بلادي فاخطأوا الظن لانني بعيد عن ان امل وساستمر بقدر استطاعتي في المدافعة عن وطني العزيز ساستمر — ولا يوقفني في طريقي الا الموت — في وصف مصائب مصر وآلامها والمناداة في كل مكان بحقوقها المقدسة والمطالبة بحريتها واستقلالها .... الخ »

٣٧

واخذ مصطفى كامل من ذلك الحين يكثر من الخطابة ونشر المقالات في الجرائد العربية والافرنجية مضحياً حياته في انقاذ مصر والذب عن الدولة العلية والمدافعة عن جميع المسلمين في مشارق الارض ومغاربها والانتصار للشرقيين على الاطلاق.

وبلغت اخبار جهاده الى الحضرة السلطانية ورأى جلالة السلطان الاعظم غيرة هذا الشاب ودفاعه عن أمته ودولته. خصوصا دفاعه في الحوادث الارمنية فكافأه بأن اهداه في ٧ اغسطس ١٨٩٦ علبة من الذهب الخالص مرصعة بالجواهر النفيسة وعليها اسم جلالته بشكل طغراء مرصعة بالاحجار الكريمة

ففاز على اعدائه فوزاً عظيماً وارتفع على خصومه ارتفاعاً كبيراً وذهب الى حبيبته عزيزة فاظهرت له من دلائل المحبة اعظمها وامارات الافتخار به اكبرها واعجبت به كثيراً وكان عندها يوسف وصالح فاخذ مصطفى على ذكر هذا الانعام يحدثهم بما رآه في الاستانة عندما سافر اليها. ويصف لهم ما شاهده من محاسنها. ثم دعوا الله ان يديم مولانا الخليفة الاعظم وخديونا المعظم



قرأ القارئ الكريم في الفصول السابقة ان لفيكتور وكيلاً ولكنه لم يعلم من هو؟ ولتعريفه له اقول انه ابن عمه وكان

يشتغل في الخفاء لانه داهية في نصب الحيل وتدبير المكائد وشيطان مريد وابليس عنيد اتخذه وكيلاً لاشغالهِ ومعينا له على اعماله فكان يده العاملة ضد مصطفى وعقله المدبر للدسائس الجهنمية التي تنصب في طريقه والمعول الحديدي الهائل الذي يهدم به آماله الغالية . وكان له من اهل عزيزة أصدقاء يعاونونه. ومن غيرهم انصار يساعدونه وكان هذا الوكيل مخلصاً فوق الحد في خدمة ابن عمه فيكتور وهمه الوحيد ان يرضيه من اي طريق كان

اخذت الجرائد تنشر خبر هذا الانعام السلطاني على الشاب المصرى الجريئ وتهنئه اعظم التهانئ فاشتهر امره كثيراً وتعرّف به الكثيرون وتقرّب منه الناس وتطاولت نحوه الاعناق وشخصت اليه الابصار

وفي ٤ اكتوبر سنة ١٨٩٦ أيضاً أصدر سمو أميرنا المحبوب أمراً كريماً برد رتب ونياشين الضابط على افندي فهمى شقيق مصطفى كامل اليه وشكره السردار على ثباته وطاعته في خدمة الجندية التي قضى فيها ستة أشهر ونصف يعمل كجندي بسيط

بالحلم ورباطة الجأش والشجاعة فكان ذلك أيضاً فوزاً لمصطفى عظيما اكمد أعداءه وأخمد حركتهم خصوصاً وكيل فيكتور

وقابل مصطفى عزيزة فهنأته بهذا العفو السامي وأظهر لها سروره بفوزه على اضداده وحادثها كثيراً في شأنها وطمأنها بانه لا يأل جهداً في تخليصها من فيكتور . ثم قال «لو استطعت تغيير وجه البسيطة لانقاذك لفعلت بلا تردد

ولو انتقل فؤادي من الشمال الى اليمين او تحولت الاهرام عن مكانها المكين ما تغير لي مبدأ ولا تبدل لي اعتقاد » فانا انا على مبدئي واعتقادي بنجاتك خصوصاً وقد صار لي انصار واشياع وقد اتفقت مع صديقي فريد بك وحسيب بك وغيرهما على مؤازرتي . انني كلما فكرت قليلاً في ذهول اهلك الجبناء الذين رضوا بفيكتور ونسوا اجنبيته وشرّعوا بقبوله شرعاً فاسداً ازداد ثقة بامكان خلاصك لاستحالة جواز هذه الخطوبة وانا على تمام الثقة من مساعدة أنصاري فانهم يحبونني كثيراً ولا يضنون عليّ بارواحهم . انهم ياعزيزة ملائكة اخلاص وامانة . ولقد تغيّر الوقت وانقلب الحال فصار انقاذك من السهل عليّ الآن

بعد رجوع بعض اهلك الى صوابهم وانتباههم الى عقولهم فقد صافاني يوسف وآخاني صالح وصالحني ابراهيم وغيرهم. فلو ساعد صادق وغالب فيكتور قاومها اولئك.

٣٨

ولما عظمت مكانة مصطفى وظهرت فوائد جهاده وثمرات نضاله ارتاح لها جلالة سلطاننا الاعظم فكافأه في ٧ اغسطس سنة ١٨٩٩ وهو تذكار يوم انعام جلالته عليه بالعلبة الذهبية في سنة ١٨٩٦ بان انعم عليه برتبة المتمايز الرفيعة مباشرة وبعد ثمانية ايام من هذا الانعام انعم عليه ثانياً بالنيشان المجيدى الثانى ثم بعد ثمانية عشر يوماً فقط انعم عليه ايضاً بالرتبة الاولى من الصنف الثانى فصار مصطفى كامل باشا بعد ان كان قبل ٢٦ يوماً مصطفى كامل افندى وهو لم يتجاوز خمسة وعشرين ربيعاً

ولا تسل عن سرور عزيزة واهلها المحبين لحبيبها ومصطفى باشا واهله ومحمد بك فريد ومحمود حسيب بك وباقي إخوانه وخلانه . ولا حاجة لبيان كمد فيكتور ووكيله وشيعته الخبيثة

فقد كان كمدهم اعظم من ان يكون فوقهُ كمداً

٣٩

قدّر مصطفى كامل فائدة العلم قدرها بما رآه في عزيزة بعد ان علّمها فرأى ان ينفع ابناء وطنه بالعلم ليكون له منهم انصار واعوان يساعدونه على ما وقف نفسه وحياته عليه من تحرير البلاد واستقلالها فانشأ مدرسته المعروفة باسمه بسراى السلحدار بشارع مرجوش في ١٧ مارس ١٨٩٩ وجعل التعليم فيها على بر وجرام عصرى جميل مع درس المبادئ الاسلامية والاخلاق العربية والعادات الوطنية وحب البلاد والتعلق بالامير والتفاني في خدمة عرشه المحروس

وانتخب للمدرسة ناظراً وضابطاً ومعلمين من افضل الاساتذة واعظمهم وجعلها تحت ادارة شقيقه الفاضل علي افندى فهمي كامل الذى كان قد ترك الخدمة في ١٧ يناير ١٨٩٩ فتقدمت المدرسة على يديه تقدماً باهراً وغصت بالتلاميذ حتى بلغ عددهم فوق ٢٠٠ تلميذ يتعلم اكثر من ثلثهم بغير اجر ولا يكلفون شيئاً

و وضع علي افندي فهمي للمدرسة قواعد وقوانين محكمة افادت المدرسة كثيراً ورضي عنها اخوه مصطفى باشا

وعلم مولانا الخليفة الاعظم باخلاص علي افندي وشهامته فانعم عليه بالرتبة الثانية في ٧ اغسطس من نفس السنة

***

في مساء اليوم الثاني من شهر دسمبر ١٨٩٩ كان الواقف في صحراء الاهرام يرى خمسة رجال وفتاة هيفاء خفيفة الحركة معتدلة القوام يسيرون الهوينا على رمال تلك الصحراء الجميله

وكان الهواء عليلاً والسماء صافية والنجوم أخذت تتلألأ في جوانب السماء كقطع الماس المنثورة تحت اشعة الشمس : وابتدأ القمر يشق جلبابه ويرفع نقابه فكان منظراً من ابهج ما رأت الابصار.

وانتهى السير بالجماعة أمام مربض ابي الهول العظيم فوقفوا بين يديه اجلالاً واعظاماً وطافوا حوله يرمقونه هيبة ووقاراً ثم تقدم رجل منهم وقال

يا ابا الهول العظيم . يا حارس صحراء الاهرام . وآثار الفراعنة الفخام . وقبور قدمائنا العظام . اصغ الي : نحن من ابناء هذا البلد الامين ومن اولاد هذا الوطن القديم نتعهد امامك ونشهد الله تعالى على ان نكون يداً واحدة في سبيل سعادتك وتطهير مربضك بانقاذ مصر واسعادها وتخليص نيلها وصرنا نقدم رؤوسنا قبل ان نخون عهودنا والله على ما نقول رقيب عتيد وهو يجزي الصادقين وينتقم من الخائنين . فاللهم اشدد ازرنا وثبت اقدامنا . وامددنا بروح من عندك يا رب العالمين . واجزنا اجر المجاهدين . فقال الجماعة آمين . آمين

ثم استأنفوا السير وولوا ظهورهم الآثار واتجهوا نحو الطريق . فمروا بفندق ميناهوس فقال المتكلم الاول . يتهمنا الاعداء والاجانب بالجهل والتوحش . افلا ينظرون الى هذه الدور كيف بنيت . والى جميع النزلاء على اختلاف الطبقات بيننا كيف رزقت . فلو كنا كما يقولون لقاومناهم . وعرقلنا طريقهم وناضلناهم . افيكون سكوتنا جهلاً ؟ لم لا يعرفونه لنا كرماً وفضلاً ؟ ووصلوا الى حيث موقف عرباتهم فركب كل اثنين عربة منها

وكانت الفتاة مع المتكلم

واذ سارت الخيل تنهب الارض وطال الطريق التفت الى الفتــاة فاذا هي محدّقة به فمدّ يده الى يدها فاخذها بين كفيه ووسم عليها قبلةً حارة . وقال يخاطبها

ـ ما أعذب هذا الحب . ان ارواح اجدادنا واسلافنا شهدت الليلة على هذا العزم وسجلته علينا في اوراق البردى فاصبح مقدساً لا تحله قوة مهما عظمت ولا قدرة مهما كبرت وشهد هذا البدر المنير أنه لا يخرج هذا الحب من قلبي ابداً وسيكون رفيقي في الحياة وسراجي في القبر عند الممات

(الفتاة) يؤلمني جداً اكثارك من ذكر موتك ياسعادة الباشا

(الباشا) لا تقولي يا عزيزة « سعادة الباشا » فان قولك هــذا يؤلمني ايضاً اذ لست انا الا خادمكِ الامين . قولي يا مصطفى فقط فوالله انها منكِ اشرف الالقاب . اما موتي فكل حي يموت . وانا شاعر بان حياتي قصيرة الامد .. انتِ تريدين ان ابقى والله يريد ان اموت ولا راد لارادة الله

(عزيزة) اسأله تعالى ان يخلف هـذا الظن انه سميع مجيب .. هل تمت يا مصطفى معدات الجريدة ؟

(مصطفى) انتهى كل شيء وستظهر في اول يناير ان شاء الله تحت اسم « اللواء » وذلك لما كشفته الايام عن عدم موافقة آراء الشيخ لآ رائنا وخروجه عن قصدنا . اننا كما تعلمين خدمناه كثيراً . وانني اعرف اخي فريد بك مذ كنت اصدر مجلتي (المدرسة) وعاشرته كثيراً ووقفت على اعماله وما يبذله في سبيل الوطن بخدمة هذا الشيخ ثم هو الآن لا يعرف لنا هذا الجميل ونسي كل خدمتنا ورفض ما طلبناه منه ويعلم الله اننا لم نطلبه الا في صالح البلاد وفائدة الوطن ولكنه اعلمنا برفضه انه لا يهمه الا فائدته الشخصية ولا يريد غير منفعته الذاتية . والذي اساءنا كثيرا تردده اخيراً على وكيل فيكتور وائتماره بامره

كان الخمسة رجال الذين اشرنا اليهم . مصطفى كامل باشا ومحمد فريد بك وعلي فهمي كامل بك ويوسف افندي وعظيم من اصدقائهم والفتاة عزيزة

فلما انتهى بهم السير الى ميدان الزهور بجهة باب اللوق وقفت المركبات وجاء الجماعة نحو عزيزة نحيوها بكل وقار وانحنوا امامها باحترام ثم رجعوا الى عرباتهم مع مصطفى باشا ورافق يوسف عزيزة وقصد كل منزله

وفي ٢ يناير سنة ١٩٠٠ غرة رمضان المعظم سنة ١٣١٧ هجرية صدر اول عدد من جريدة اللواء فكان لظهوره تأثير جميل على الرأي العام الوطني ووقع سيء جداً على قلوب الاحتلاليين والاضداد والحساد . واهتزت له مقاعد السواس خوفاً . وارتجفت قلوب رجال بريطانيا هلعاً . وقام له وكيل فيكتور وقعد وكان اشد خصوم الباشا عداوة

٤٠

تحسنت حال عزيزة كثيراً وارتقت معيشتها عن ذي قبل فصار لها خادم وخادمة وكثير من الادوات الكمالية في المعيشة . وكان خادمها يتردد كثيراً على ادارة جريدة اللواء حاملاً رسائلها الى حبيبها الباشا فيدخل عليه من غير اذن كما امر سعادته

فبينما هو ذات يوم امام مكتبته اذ دخل علية الخادم وناوله رسالة فتناولها بلهفة العاشق المتيم وفضها بانامل الفرح والسرور وقرأ فيها ما يأتي

القاهرة في ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٠٤

سعادتلو افندم الشريف النبيل مصطفى كامل باشا

بعد السلام على سعادتكم والاحترام الواجب لمقامكم انهي لسعادتكم رغبتي في مقابلتكم لحاجة تتعلق بشخصي بل بقلبي معك فتكرموا بذلك ولسعادتكم الشكر

عزيزة

قرأ الباشا الكتاب ثم طواه متمهلاً وظهر عليه التفكير وتقطب ما بين حاجبيه ثم دسه في غلافه ووضعهُ في درج في المكتبة امامه وتناول القلم وكتب الرد

القاهرة في ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٠٤

حياتي

تحية وسلام وشوق وهيام وأجلال واحترام لطلعتك البهية وذاتك القمرية

و بعد . فلهجة كتابك اشغلت بالي . وهيجت بلبالي .
وسأحضر حالاً واقبلي فائق التحية من

خادمك وقتيل حبك

مصطفى كامل

ثم طواه وغلفه وناوله الى الخادم فاخذه وانصرف الى
مولاته .. لم يألف مصطفى من صغره الى اليوم من عزيزة ولا
هي عودته النفور وكان حبهما لبعضهما يفوق كل حب وغرامهما
يزيد عن كل غرام وكانت كتبها له تسيل رقة وليناً فلم يصله
منها مثل هذا الكتاب في حياته .. فلا ابن الملوح المجنون في
حب ليلى ولا جميل في بثينة ولا عنترة في عبلة ولا كثير عزة
باصدق من مصطفى في حب عزيزة ولا تفانى احدهم في
عشق عشيقته كما تفانى هو في عشق عزيزته . ولقد شهد له
العاذل والحسود والعدو والصديق باخلاصه في غرامه وصدقه
في هيامه ولا جرم فقد كان حبه فطرياً عظيماً . واصيلاً شريفاً .
فليحكم الآن كل عاشق ويتدبر كل لبيب كيف كان حال مصطفى
بعد ان رأى جفاء هذا الكتاب وقسوة لهجته ؟ منعها مراراً

ان تناديه « بالباشا » او تلقبه « بسعادة » . وكانت كتبها على ما يشتهي تماماً وكلها مفعمة بالمحبة وعبارات الهيام ولم يصله منها مثل هذا الكتاب في لهجته واختصاره وجفاء معناه . فبماذا يعبر عنهُ ؟ وماذا يفهمه منه ؟ كان معها في الصباح كعادته فهل طرأ طارئ ؟ وما عساه ان يكون؟

***

يعلم كل مصري ويعرف كل شرقي ولا يجهل أغلب الغربيين ما ناله « اللواء » منذ ظهوره من الفوز والنجاح وكيف خدم بصدق وجاهد بأخلاص وكم ضرب على دفّ الوطنية أدواراً حماسية جميلة أصغى لها الجميع وتهافتوا على سماعها

وجعل مصطفى باشا « اللواء » تحت أدارة شقيقه علي بك فهمي كامل ليتفرغ هو للتحرير والسياسة والخطابة فادار شؤونه بهمة عالية وحذق عجيب وخدمه بصدق واخلاص يشابهان صدق الباشا واخلاصه

وعرف جلالة مولانا السلطان الاعظم ذلك عنه ايضاً فاعجبته

شهامته فكافأه شأنه دائماً مع المخلصين بأن أنعم عليه في ١٥ يوليه سنة ١٩٠١ بالنيشان المجيدي الثالث وبرتبة المتمايز الرفيعة في ١٢ يونيو سنة ١٩٠٣ فكانت هذه الانعامات موارد سرور وشجاعة للباشا وأخيه وأنصارهما . ومصادر همّ ونكد وفشل لفيكتور ووكيله ونمروذ وأشياعهم . وطالما سعى هذا الوكيل سعياً متواصلاً وأجهد نفسه جهداً عظيماً وحاول كثيراً أن يثبط مساعي مصطفى باشا وأنصاره فلم يفلح ولا فاز بأمله . وكان فيكتور يحرضهُ ويستفزه فيجمع أشياعه ويتكالبون وينفثون سموم فتنتهم هنا وهناك وينشرون بذور مكائدهم الخبيثة في كل مكان ولكنها لا تنمو ولا تورق ولا تثمر فكانت الخيبة تكاد تقتلهم والفشل يكاد يقطع قلوبهم وهم يكظمون الغيظ

٤١

لم يكاشف مصطفى باشا أحداً بأكداره من كتاب حبيبته بل قام من فوره اليها وصعد الى غرفتها فوجدها حزينة كئيبة والهم ظاهر على وجهها ولم تقابله على رأس السلم باسمة

كعادتها فهاله الامر وافزعهُ الحال فتقدم اليها وحياها فلم تكترث كثيراً فزاد هلعه وصرخ قائلاً

ـ يكاد قلبي ينفطر

قالت هوّن عليك فانه لا ينفطر لاجلي . وغصت بريقها وسكتت فصرخ مصطفى ثانياً

لست أفهم شيئاً

قالت . اقرأ . . . وناولته خطاباً فقرأ

القاهرة في ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٠٤

أيتها الملاك الطاهر السيدة عزيزة

سلام واحترام . وبعد . أرجوك أن تسألي حبيبك الباشا عن عشيقته المقيمة بشارع عابدين واحذري أن يغرر بك

(الامضا مخلص)

يالها من دناءة . صرخ الباشا وضرب بكفهِ الكتاب . هل تصدقين ياعزيزة ؛ هل يؤثر عليك محالهم ؟ ألم أحذرك من مكائدهم ؛ ألم اقل لك « تدبري كل ما يقال واحرصي أن يؤثروا عليك . وكان جوابك » حاشا لله ان يؤثر عليّ قول أو

يصادف كلامهم مني اذناً سامعة. فلماذا اثر الآن وصادف سمعك ؟ انهم ابالسة عرفوا كيف يؤثرون عليك لعلمهم انه لا يهيج عواطف الفتاة الا علمها بخيانة حبيبها فعمدوا الى لصق تهمة الخيانة الشنعاء بي وللاسف صدق فألهم معك ايضاً قبحهم الله. اقسم لك ياعزيزة بشرفي و بكل عزيز لديّ انني لا ازال على عهدي معك وانني لن احيد عن حبي ولن ارجع عن غرامي ولن يوقفني في طريق خدمتك الا الموت

وانني ياعزيزة اضرع اليك واجثو لديك ان لا تشمتي الاعداء . انني اعلم ان ابن عم فيكتور هو الذي ارسل هذا الكتاب نخيبي ياحبيتي امله

فقالت عزيزة من فورها . لقد خاب امله وارتد عليه كيده. وابتسمت ابتسامة الارتياح والسرور وقامت الى حبيبها فقبلت جبينه الملتهب غيظاً وعانقته . فانطفأ لهيب غيظه . ثم عاتبها بلطف واكد لها انه سيطلعها على قصدهم السيء من ارسال هذا الكتاب

*
* *

صار حب مصطفى لعزيزة اشهر من نار على علم. سارت باخباره الركبان وتحدث به الخاص والعام. وكان يباهي به في مجالسه الخصوصية ويفتخر به على اخوانه المقربين وكان اهله وانصاره يحبونها لما اوجده في قلوبهم من الميل اليها ولما وصفها به امامهم ورأوه منها باعينهم.. كان سلاحه في الدفاع عنها ان الشرائع لا تجيزها لفيكتور. وظل كذلك يدافع ويناضل حتى أعلن اهلها انهم سلموا بها لفيكتور على سبيل تربيتها فقط لما كانوا عليه من الفقر وليس على سبيل الزواج. وفيكتور نفسه لا ينكر انه لا تجيزها له شريعة ولا قانون ولكنه لا يريد ان يتركها لانه خصّ بالوصاية عليها بارادة اهلها ورغبتهم - وخوفاً من انتصار مصطفى عليه. ولكن مصطفى اعلن انه لا يريد زواجها لانها اعزّ لديه من زوجة واقدس في فؤاده من قرينة وان حبه لها اجل من حب الازواج. وان غاية جهاده ان تكون خالصة ممن تكرهه ويقوم هو على خدمتها الى الممات

وتحققت عزيزة الفوائد العظيمة التي عادت على حبيبها وعليها بواسطة اسفاره في كل عام الى اوربا فكانت تشجعه

على السفر ولا تحزن في فراقه حزنها في سابق الاعوام . ولا ينكر وطني ولا اجنبي ما افاده جهاد مصطفى باشا لمصر وما انتجه سفره لها من النتائج الحسان بالفاته انظار اوروبا اليها ونظرها لها بعين الاحترام والوقار واغماضها عنها عين التجهيل والتحقير السابقة

ومن جليل خدماته ما رفعه الى رئيس الوزارة الانكليزية السير هنري كمبل بانرمان بتاريخ ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٧ لمناسبة تذكار هذا اليوم المشؤوم الذي دخل فيه الجيش البريطاني مدينة القاهرة سنة ١٨٨٢ يذكّره « بالاقسام التي فاهت بها الملكة فيكتوريا والخطب التي فاهت بها وزراؤها واكدوا فيها ان الاحتلال الانكليزي في مصر يكون عاراً على التاج والشرف البريطانيين »

٤٢

لا ينكر أحد ان مصطفى باشا كان نابغة الشرق كله فكان يبذل جهده في اصلاح احوال جميع الممالك الشرقية . وكان

يكاتب مولاي عبد العزيز يحذره وابن الرشيد ينصحه

ولما كانت حرب اليابان وضع كتاب الشمس المشرقة موعظة وتذكرة . وكان عازماً على السفر الى بلاد الميكادو لنقل مدنيتهم الينا . ولما وقعت حادثة دنشواي الفظيعة كان اللواء اول صارخ على فظاعتها . ولا يجهل واحد في العالم جهاد صاحبه ونضاله واسفاره الى باريس ولوندرة وخطبته هناك على جمع من رجال البرلمان البريطاني . ونفيه التعصب الذي رُميت به الامة المصرية من اعدائها . وكانت حججهُ باهرة وادلته ساطعة حتى اقشعرت ابدان الانكليز الاحرار من ذكره تفاصيل تعذيب الدنشوائيين بظلم وقسوة فانتصروا له وناضلوا معهُ حتى اجبروا السير غراي على سحب كلمة التعصب التي فاه بها عن المصريين وقد فعل . وما اتهمونا بالتعصب الاّ لما اظهرناه من عواطف الوطنية يوم طابه وما ابداه مصطفى باشا من الدفاع عن الدولة والملة

وراى بعد عودته من لندن ان يصدر جريدتين إحداهما فرنساوية والاخرى انكليزية لتعبرا بلسانين اجنبيين عن

رغائب المصريين وتفضح اعمال الاعداء بلغة يفهمها الاوروبي الذي يخفون حسناتنا عنه ويعرضون عليه سيئاتنا عمداً ليبعدوا عن قلبه الشفقة بنا، وليبرروا امامه اضطهادهم لنا. فالف شركة مساهمة وجمع ٢٠ الف جنيه في ثلاثة ايام اكتتب بها الوطنيون عن طيب خاطر لما يعهدوه فيه من الكفاءة التامة والصدق والاخلاص. ثم رجع ثانياً الى باريس ولندن مع صديقه الاعظم محمد بك فريد لانتقاء المحررين للجريدتين من الفرنساويين والانكليز وتعيين المكاتبين لهما في الجهتين ثم عادا وظهرت بعد ذلك ليتندار اجبسيان (الفرنساوية) وذي اجبشيان استندارد (الانكليزية) في ٢ مارس سنة ١٩٠٧ وجعل الاشتراك فيهما مجاناً للمصريين مدة ١٦ يوماً ولرجال مجلسي النوّاب الفرنساوي والانكليزي وعظماء الامتين مدة سنة كاملة. حكمة بالغة.

ولما كان في هذه الرحلة الاخيرة باوروبا، دب المرض الى جسمه والزمه الفراش عدة ايام هناك فاحضر له صديقه فريد بك الدكتور الاشهر روبان فتبين له ان انحراف صحته مسبب عن كثرة العمل وشدة اجهاده لنفسه وتحميلها فوق الطاقة فنصح

له بترك العمل قليلا واستبداله بالرياضة بضعة ايام وأن يراقب الله في أمته فلا يحرمها من وجوده حتى يتم مهمته التي وقف حياته عليها . فتذكر حينئذ عزيزة وتنهد

ولكن أتت نصيحة الطبيب بعكسها فانه لما أحس بالضعف واستعداده للامراض الفاتكة أسرع في العمل وضاعف المجهود حتى اظهر الجريدتين في الميعاد البادى الذكر واخذ ينظم الحزب الوطني ويضع مواد قانونه على قواعد ثابتة حتى اذا سكن الجنة لا يخشى عليه السقوط . لا قدر الله

وألقى خطبته الشهيرة بتياترو زيزينيا بالاسكندرية في ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٠٧ وأعلن فيها مبادئ الحزب العشرة فدوى صداها في العالم وخفقت لها أفئدة الوطنيين واظهرت الامة ميلها للانضمام اليه فلم يأت موعد انعقاد الجمعية العمومية للحزب الا ولديه طلبات للعضوية تحصى بالالوف . وانعقدت الجمعية العمومية في يوم الجمعة ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ فحضرها جمع غفير من مختلف الطبقات والمقامات من الاعضاء فخطب فيهم الباشا خطبة مؤثرة للغاية وانتخبوه رئيساً . وكان مريضاً فرجع

بعد الخطابة الى فراش مرضه ثانية .

ولم يعقه المرض الشديد عن القيام بخدمته ولم يمنعه وجوده في فراش المه عن جهاده فرفع من قلمه في ١٩ يناير سنة ١٩٠٨ الى رئيس الوزارة الانكليزية احتجاجاً على عقد الشركة السودانية المصرية الانكليزية الباطل بمقتضى الفرمانات الشاهانية والمعاهدات الدولية ورفع الى الصدارة العظمى ورئاسة الوزارة المصرية بلاغين بذلك

*
* *

يغنيني ذكاء القارىء وفهمهُ عن ان اتكبد وصف حالة عزيزة السيئة الحظ وجزعها الشديد على مرض حبيبها وما كانت تشعر به من الهم والغم والكدر . فلم يكن جزع أشقائه وانصاره وأشياعه ومحبيه باكبر من جزعها . فما كانت التعسة تهنأ بعيش ولا رقاد . بل كان السهر اليفها والبكاء أنيسها والضجر جليسها . وكانت تلازم سريره فيتمتع بقربها ويذهب ألمه ما دامت بجانبه . واذا غابت عنه تمثل شخصها امامهُ واخذ يكلم الخيال ويناديه حتى يغيب عن صوابه في بيداء الغرام

ويعلو صوته حتى يسمعهُ أقاربه فينبهونه خوفاً عليهِ . ولما تكرر حصول ذلك منهُ قالوا ان مرضهُ من العشق وسقمهُ من الغرام

وفي اوائل فبراير سنة ١٩٠٨ رفع الى السير ادوارد غراي وزير خارجية انكلترا تلغرافاً بامضائه احتجّ فيهِ عليهِ لتهمتهِ للمصريين بالجهل وعدم استحقاقهم للمجلس النيابي وقال له ان المصريين اقدر على حكم انفسهم من كثير من الامم الاوربية

فهدأ بال عزيزة واخوته عليهِ وحسبوا انهُ تقدم الى الشفاء

وفي العاشر من فبراير دخلت عزيزة على حبيبها تبتسم وفي يدها كتاب . فحيتهُ بانعطاف وسالتهُ عن صحتهِ ثم دفعت اليهِ الكتاب وهي تضحك . فتناوله من يدها وقرأ

القاهرة في ٩ فبراير سنة ١٩٠٨

ايتها السيدة العظيمة

تحية واحترام . . وبعد فقد استفزتني الشفقة بكِ ان امحض لك النصح . فاعلمي ان الذي يدّعي عشقك عاشق لغيرك . فاسأليهِ عن عشيقتيهِ في القسطنطينية وباريس . وكفاك غروراً بهِ م؟ شيخ من اهلك

ولم يتم قراءته حتى قالت له عزيزة « اقسم لك انني لا اصدق فيك وشاية ولا تؤثر عندي الاكاذيب : وحاشاي ان اعيرها اذناً سامعة.. فكن براحة بال

فسكت الباشا وسرّ نوعاً بما قالته عزيزة وبعد انصرافها أحسّ بتشنج في قلبه وتأكد دنو أجله فدعا اخاه علي بك فهمي كامل وصديقه فريد بك وبعض اعضاء حزبه وقال لهم دنت الساعة الهائلة . وقرب الرحيل.. وأنا لا اشك في اخلاصكم وقدرتكم على السير في طريقي . واقتفاء أثري . ولكنني ازيدكم نصيحة . ليكن كل منكم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً . لا تتفرقوا . ولا تجعلوا للشياطين الى قلوبكم سبيلاً . وابذلوا ارواحكم فداء الوطن وحياتكم في سبيل اعلاء شأنه . فلا حياة الا به . . وانت يا اخي « كن شهماً شجاعاً اقتف اثري واعمل عملي واعتقد ان اخاك لم يمت فالامة كلها عونك ونصيرتك . اننا يا اخي على الحق فلا نضام ابداً . انهم سيشمتون في موتي ولكنهم سيموتون . الحمد لله فقد اسست الحزب وتركت رجالاً يبنون فوق ما اسست فيشيدون ما نرجو

لبلادنا من عزّ وسؤدد »

ثم اخذ القلم وكتب

القاهرة في يوم الاثنين ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨

عزيزتي

اودعك الوداع الاخير . وانظر اليكِ النظرة الاخيرة .
وبعد فقد اوصيت بك اخي وصديقي واخواني خيراً

والآن في الساعة النهائية اطلعك على عشيقاتي اللاتي
كتب لك عنهنّ الخائنون للتشويش على افكارك

لا انكر ان لي قلباً خفاقاً ككل انسان . وجنانا يهتزّ
كأي جنان . ولكن وحرمة ساعة الاحتضار لم يشغل هذا
القلب عشق الفتيات . ولا استهوتْ هذا الجنان دواعي الملذات .
والا لكان الاعداء يدسونه عليَّ في مفترياتهم . ويتسلحون به
ضدي في تشهيراتهم . ولكنهم لطهارتي لا يجسرون

فاما شارع عابدين . فاعشق فيه الاريكة الخديوية الكريمة .
والقسطنطينية . فاعشق فيها الخلافة الاسلامية العظيمة .
وكنت اعشق في باريس . الحرية الغالية الثمينة . ومع ذلك فعشقي

لكِ هو الاول والاخر . والذي عشت به . واموت الآن عليه

« يا عزيزتي » مصر الشهيد

مصطفى كامل

ثم اسلم روحه الطاهرة الى ربه داعياً لمصر « عزيزته » ان تبلغ ما كان يسعى فيهِ لاجلها . بهمة سعادة شقيقهِ وحزبهِ وانصاره وفي مقدمتهم سعادة الوطني الغيور صديقهِ الاعظم

محمد فريد بك

وكانت تلك آخر كلماتهِ وهذه آخر كتاباتهِ



مات صاحب اللواء فليحي اللـواء

مات الرئيس فليحي الرئيس

